فريق
متميزون
E-BOOK

ألكسندر كوبرين

سوار العقيق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سوار العقيق

ألكسندر كوبرين

ترجمة: أبوبكر يوسف

عن الكتاب..

سوار العقيق قصة من كتاب يحتوي على عدة قصص للكاتب ألكسندر كوبرين يحمل نفس العنوان، نُشرت ترجمتها العربية الأولى في دار «رادوغا» في الإتحاد السوفياتي. وتم إعادة نشر الكتاب في طبعة جديدة لدار «الأهلية» الأردنية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

" سوف أجعلك ترين الآن في أصوات لطيفة حانية تلك الحياة التي حكمت على نفسها بالشقاء والمعاناة والموت بكل خنوع وسرور. فأنا لم أعرف قط أي نوع من الشكوى أو اللوم، من ألم الأنانية. وأنا أمامك – مجرد صلاة واحدة: "ليتقدس اسمك". بلى، أنا أتوقع المعاناة والدماء والموت. وأفكر أنه من الصعب جدًا أن يفترق الجسد مع الروح، ولكن، أيتها البديعة، المجد لك المجد الكبير والمحبة الهادئة. "ليتقدس اسمك". أتذكر كل خطوة من خطواتك، وكل ابتسامة، كل نظرة وكل وقع لمشيتك. إن ذكرياتي الأخيرة مكللة بحزن شفيف لطيف وهادئ، بحزن ساحر وجميل. بيد أنني لا أسبب لك أي ألم، أي أذى. إني أرحل وحيدًا، بصمت، تلك هي مشيئة الرب والقدر. "ليتقدس اسمك".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

–1–

في منتصف أغسطس، وقبيل مولد الهلال الجديد، ساد فجأة طقس مقرف من ذلك النوع المميز لسواحل البحر الأسود الشمالية. فتارةً كان الضباب الكثيف يجثم أيامًا كاملة على الأرض والبحر، وعندها تزأر صفارة الفنار الضخمة ليل نهار كأنها ثور هائج. وتارة كان يهطل من الصباح إلى الصباح مطر دقيق كالغبار المائي فيحيل الطرقات والدروب الطينية إلى كتلة كثيفة من الوحل تنغرز فيها العربات والمركبات فتبقى طويلًا. وتارة اخرى كان يهبُّ إعصار ضار من الشمال الغربي، من جهة السهوب، فتتمايل له قمم الأشجار وهي تنحنى وتستقيم كأنها الأمواج ساعة العاصفة، وتقرقع في الليل أسطح المنازل الحديدية، فيخيّل إليك أن أشخاصًا ما يركضون فوقها بأحذية ذات حدوات حديدية. وكانت أطر النوافذ تختلج والأبواب تصطفق، وتعوي مداخن الأفران عواءً موحشًا. وضلت عدة قوارب صيادين طريقها في البحر، وفُقِدَ منها اثنان إلى الأبد، وبعد أسبوع ألقى البحر جثث الصيادين في مختلف أنحاء الشاطىء.

وأسرع سكان المصيف الساحلي الصغير - ومعظمهم من اليونانيين واليهود، من عشاق الحياة والوسواسين ككل أهل الجنوب - اسرعوا بالانتقال إلى المدينة. وعلى الطريق الموحل امتدت بلا نهاية عربات الجر المحملة بشتى الحاجيات المنزلية: باللفائف والأرائك والصناديق والكراسي وأحواض الغسيل وغلايات الشاي. وكان من المؤسف والمحزن والمقرف أن تنظر عبر غلالة المطر الغائمة إلى سقط المتاع البائس هذا، الذي بدا باليًّا وقذرًا ومستهلكًا بهذه الصورة، وإلى الخادمات والطاهيات الجالسات فوق الأحمال على مشمع مبلل، ممسكات بمكاوٍّ ما وعلب من الصفيح وسِلال، وإلى الخيول المنهكة العرقانة التي تتوقف من حين لآخر وركبها ترتعش، والبخار يتصاعد من أجنابها المتمايلة، وإلى سائقي العربات الملتفين بقطع من الخيش إتقاء للمطر وهم يسبون بصوت مبحوح. وكان الأكثر إثارة للحزن أن تنظر إلى المنازل الصيفية المهجورة، وقد أصبحت فجأة فسيحة وخاوية وعارية، بأحواض زهورها المشوهة وزجاج نوافذها المحطم، وكلابها المتروكة، وشتى أنواع مخلفات البيوت: من أعقاب سجائر ووريقات وثقف وعلب صغيرة وقوارير صيدلية.

ولكن الطقس تغير فجأة وبصورة غير متوقعة أبدًا في بداية سبتمبر. وعلى الفور حلت أيام هادئة صحوة، أيام صافية مشمسة ودافئة لم يكن لها مثيل حتى في يوليو. وفي الحقول الجافة المحصودة وعلى صفحتها الكثة الصفراء لمعت خيوط العنكبوت الخريفية كلمعان البلق. وأخذت الأشجار المستكينة تلقي بأوراقها الصفراء دون صوت وفي استسلام.

لم تستطع الأميرة فيرا نيقولايفنا شيينا زوجة زعيم النبلاء أن تُغادر المنزل الصيفي لأن أعمال الترميم لم تنته في منزلهم بالمدينة. وها هي الآن قد فرحت للغاية بحلول هذه الأيام الساحرة، وبالهدوء والعزلة والهواء النقي وبغناء السنونوات على أسلاك البرق وقد تجمعت في أسراب لتهاجر، وبالريح الرقيقة المالحة التي تهب بوهن من جهة البحر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

–2–

وعلاوةً على ذلك كان اليوم - السابع عشر من سبتمبر - عيد ميلادها. كانت تحب دائمًا هذا اليوم من ذكريات الطفولة العذبة البعيدة، وكانت دائمًا تنتظر منه شيئًا ما سعيدًا رائعًا. وكان زوجها الذي سافر صباحًا لأمور عاجلة في المدينة، قد وضع لها ليلًا على طاولة النوم علبة بها قرط رائع من اللؤلؤ الكمثري الشكل، فزادت هذه الهدية من بهجتها.

كانت وحدها في المنزل كله. فقد سافر أخوها الأعزب نيقولاي وكيل النائب العام، الذي كان يسكن في العادة معهم، إلى المدينة هو الآخر. ووعد زوجها بأن يأتي معه إلى الغداء بعدد قليل من المعارف ومن المقربين فقط. وكان جميلًا أن يتفق عيد ميلادها مع موسم الاصطياف. فلو كانوا في المدينة لاضطروا إلى الانفاق على مائدة عيد كبيرة بل وربما إلى إقامة حفل، أما هنا في المنزل الريفي فكان من الممكن الإكتفاء بأقل النفقات. فقد كان الأمير شيين، رغم مركزه المرموق في المجتمع، بل ربما بفضله، لا يكاد يدبر أموره المالية إلا بصعوبة. لقد بدد أسلافه تقريبًا ضيعة الأسرة الضخمة. وكان عليه أن يعيش في مستوى أعلى من دخله، فيقيم الحفلات ويتبرع للأغراض الخيرية ويرتدى الملابس الجيدة ويقتني الخيول إلخ... وكانت الأميرة فيرا التي تحول حبها السابق العارم لزوجها منذ أمد بعيد إلى شعور بالصداقة الراسخة المخلصة الحقة، تحاول بكل قواها أن تحمي الأمير من الإفلاس التام. فكانت تحرم نفسها من أشياء كثيرة - دون أن تجعله يلاحظ ذلك - وتقتصد ما أمكن ذلك في نفقات المنزل.

راحت الآن تتجول في الحديقة وتقطف بالمقص في حذر زهورًا لمائدة الغداء. كانت أحواض الزهور قد اقفرت وأصبح منظرها مضطربًا. وأزهرت أخريات الزنابق المزدوجة المتعددة الألوان، وكذلك أزهار المنثور التي كان نصفها أزهارًا ونصفها الآخر قرونًا دقيقة خضراء تفوح منها رائحة الكرنب، أما خمائل الورد فقد برعمت وأوردت لثالث مرة في هذا الصيف، وإن كانت ورودها أصبحت صغيرة مبعثرة كأنها آخر العنقود. وفي المقابل أزهرت الداليا وزهور الصليب والاسطر بعنفوان وفي جمالها البارد المتكبر وهي تنشر في الهواء المرهف شذى خريفيًّا عشبيًّا حزينًا. أما بقية الزهور، فقد أخذت بعد حبها المترف وأمومتها الصيفية الوفيرة الفياضة تنثر على الأرض في هدوء ما لا حصر له من بذور الحياة القادمة.

وتناهت من الطريق القريب زمارة السيارة الثلاثية النغم المألوفة، منبئة عن مقدم آنا نيقولايفنا فريسي، أخت الأميرة فيرا، التي وعدت تليفونيا في الصباح بالمجئ لمساعدة أختها في استقبال الضيوف وأمور المنزل.

ولم يخدع فيرا سمعها المرهف، فمضت لملاقاة شقيقتها. وبعد بضع دقائق توقفت سيارة أنيقة مكشوفة أمام بوابة البيت، وقفز السائق من مقعده بمهارة وفتح باب السيارة.

تبادلت الشقيقتان القبلات بفرح. لقد كانت تربطهما منذ طفولتهما المبكرة صداقة دافئة حانية. ولم يكن بينهما أي وجه للشبه في مظهرهما الخارجي إلى حد يبعث على العجب. فقد كانت الشقيقة الكبرى فيرا تشبه أمها، الحسناء الإنجليزية، بقوامها الفارع المرن، ووجهها الرقيق وإن كان باردًا أبيًا، وذراعيها الرائعتين وإن كانتا كبيرتين إلى حد ما، وتلك الاستدارة الساحرة للكتفين التي يمكن أن تراها في المنمنمات القديمة. أما الأخت الصغرى آنا فقد ورثت، على العكس، دماء أبيها المنغولية، ذلك الأمير التتري الذي لم يعتنق جده المسيحية إلا في بداية القرن التاسع عشر، والذي كان نسبه العريق يمتد إلى تيمور لنك نفسه، أو لنج-تيمير، كما كان أبوها يدعو بالتترية ذلك السفاح العظيم. وكانت أقصر من شقيقتها بنصف هامة، عريضة الكتفين قليلًا، حية، مستهترة وساخرة. كان وجهها منغولي الملامح بشدة، بارز الوجنتين بشكل واضح، وعيناها ضيقتين زاد من ضيقهما أنها كانت تزرهما لضعف بصرها، وارتسم على فمها الصغير الشهواني تعبير متكبر، وخاصةً في الشفة السفلى الممتلئة والبارزة قليلًا إلى الأمام.. ورغم ذلك فقد كان هذا الوجه ذا سحر آسر غير مفهوم ولا ملموس.. سحر ربما تجلى في الإبتسامة، أو ربما في الأنوثة الدفينة في جميع ملامحه، أو ربما في تعابيره المنمقة العابثة المتدللة. كان قبحها الرشيق يثير اهتمام الرجال ويجذبهم بأكثر وأقوى من جمال شقيقتها الأرستقراطي.

كانت متزوجة من رجل غني جدًّا وغبي جدًّا، لم يكن يفعل شيئًا مطلقًا، لكنه كان موظفًا في مؤسسة خيرية ما ويحمل لقب وصيف المخدع. ولم تكن آنا تطيق زوجها، انجبت له طفلين، ولدًا وبنتًا، وقررت بعدها ألا تنجب فلم تنجب. أما فيرا فكانت تتحرق إلى أن يكون لها أولاد، بل وخيِّل إليها أنه كلما كانوا اكثر كان ذلك أفضل، لكنه لسبب ما لم يولد لها أحد، فكانت تعبد بحرارة وألم طفلى أختها الصغرى الجميلين الممتقعين، المؤدبين المطيعين دائمًا، بوجهيهما الأبيضين الشاحبين وشعرهما المجعد الكتاني كشعر الدمى.

كان كيان آنا كله مكونًا من عدم الاكتراث المرح والتناقضات اللطيفة، الغريبة أحيانًا. فكانت تنساق بترحاب وراء أخطر المغامرات الغرامية في جميع عواصم أوروبا ومصايفها، لكنها لم تخن زوجها أبدًا، رغم أنها كانت مع ذلك تسخر منه باحتقار أمامه وفي غيابه، وكانت مسرفة، تعشق بجنون ألعاب القمار والرقص والانطباعات القوية والمشاهد الأخاذة، وتزور في الخارج المقاهي المشبوهة، لكنها تميزت في الوقت نفسه بالطيبة المغدقة والتدين

العميق المخلص الذي دفعها حتى إلى اعتناق الكاثوليكية سرًّا. وكان ظهرها وصدرها وكتفاها ذات جمال نادر. وعندما كانت تقصد الحفلات الكبيرة، كانت تتعرى أكثر بكثير مما تسمح به حدود اللياقة والموضة، لكنه قيل أن قميصًا من الوبر الخشن كان يطل دائمًا من فتحة الديكولتيه الواسعة.

أما فيرا فكانت صارمة في بساطتها، تُعامل الجميع ببرود ولطف متعالٍ قليلًا، وكانت متحررة وهادئة كالملكات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

–3–

- يا إلهي، ما أجمل المكان هنا! ما أجمله!...

قالت آنا وهي تسير إلى جوار شقيقتها على الدرب بخطوات قصار سريعة.

- لنجلس هنا قليلًا إذا أمكن على الأريكة فوق الجرف. لم أرَ البحر منذ زمن طويل. يا له من هواء بديع... يرقص القلب عندما تتنفسين. لقد توصلت إلى إكتشاف مذهل في ميسخوري بالقرم. في الصيف الماضي. أتدرين ما رائحة ماء البحر أثناء تكسر الأمواج على الشاطئ؟ تصورى: خزامى.

فضحكت فيرا برقة وقالت:

- أنتِ واسعة الخيال.

- كلا، كلا إنني أذكر كيف ضحك الجميع مني ذات مرة عندما قلت أن ضوء القمر فيه لون وردي. ومنذ أيام وافقني المصور بوريتسكي على هذا.. ذلك المصور الذي يرسم صورة لي.. قال إنني كنت على حق، وأن المصورين يعرفون ذلك منذ أمد بعيد.

- وهل هذا المصور غرامكِ الجديد؟

فضحكت آنا وقالت:

- أنتِ دائمًا تختلقين!

واقتربت بسرعة من حافة الجرف الذي ينحدر كالجدار القائم ويغوص عميقًا في البحر، ونظرت إلى أسفل، واذا بها تصرخ فجأة في فزع وترتد إلى الوراء شاحبة الوجه.

وغمغمت بصوت ضعيف متهدج:

- أوه، ما أعلاه! عندما أنظر من مثل هذا الارتفاع أشعر دائمًا بشيء ما حلو ومقزز يدغدغني في صدري.. وتؤلمني أصابع قدمي.. ومع ذلك أجد نفسي أنجذب وأنجذب إلى القاع...

وأرادت أن تنحني مرة ثانية فوق الجرف ولكن شقيقتها منعتها:

- آنا يا عزيزتي، لا داعي أرجوكِ! إن رأسي يدور عندما أراكِ تفعلين ذلك. أرجوكِ اجلسي.

- حسنًا، حسنًا، ها قد جلست... لكن هلا نظرتِ حولكِ إلى هذا الجمال، هذا الفرح.. العين لا تشبع منه، آه لو تعلمين كم أنا ممتنة لله على جميع هذه

العجائب التي خلقها لنا!

واستغرقتا كلتاهما في التفكير لحظة. كان البحر يستكن عميقًا تحت أقدامِهما. ولم يكن الشاطئ يُرى من على الأريكة، ومن ثم ازداد الإحساس بلا نهائية البحر وعظمته. كانت المياه هادئة في رقة، ومرحة الزرقة، تلوح فاتحة فقط عند خطوط التيارات المائلة المصقولة، ثم تتحول إلى زرقة كثيفة عميقة عند الأفق.

وغير بعيد عن الشاطئ هجعت قوارب الصيادين بلا حِراك على صفحة البحر الملساء فلم تكد العين تميزها لشدة ما بدت صغيرة. وعلى البعد لاحت سفينة ذات ثلاثة صوارٍ، وبدت كأنها معلقة في الجو دون أن تتقدم، ومغلفة من أعلاها إلى أسفلها بأشرعة رتيبة ممشوقة بيضاء قد نفختها الريح.

وقالت الأخت الكبرى شاردة:

- إنني أفهمكِ ولكني لا أحس كما تحسين. فعندما أرى البحر أول مرة بعد زمن طويل يثيرني ويفرحني ويذهلني. كأني أرى لأول مرة معجزة ضخمة مهيبة. ولكن فيما بعد، عندما أعتاده يبدأ يجثم على صدري بفراغه المستوي.. إنني أضجر وانا أنظر إليه ولذا أحاول ألا أتطلع إليه بعد ذلك... إنه يبعث على الملل.

وابتسمت آنا، فسألتها أختها:

- لِمَ تبتسمين؟

فقالت آنا بمكر:

- في الصيف الماضي رحلنا من يالطا في ركب كبير على ظهور الخيل إلى أوتشكوش. إنها هناك وراء الغابة، أعلى الشلال، وفي البداية دخلنا في سحابة، فكان الجو حولنا رطبًا والرؤية سيئة، لكنا واصلنا الصعود على درب شديد الانحدار بين أشجار الصنوبر - وإذا بالغابة تنتهي فجأة، وخرجنا من الضباب. تصوري: فسحة ضيقة فوق صخرة، والهوة تحت أقدامنا. وكانت القرى في الأسفل لا تزيد عن حجم علب الكبريت، أما الأشجار والبساتين فكالأعشاب الصغيرة. وكانت الناحية كلها تنحدر نحو البحر كأنها خريطة جغرافية. وبعد ذلك البحر! يمتد إلى خمسين.. إلى مائة كيلومتر. وخيِّل إليَّ أنني معلقة في الهواء وسأطير بعد لحظة. يا للجمال، يا للخفة! ماذا التفت خلفي وقلت لدليلنا بإعجاب: «ماذا يا سعيد أوغلي؟ جميل؟». فطقطق بلسانه وقال: «إيه يا سيدتي، لكم سئمت كل هذا... كل يوم نراه».

فضحكت فيرا وقالت:

- شكرًا على المقارنة. كلا، إنني أعتقد أننا، نحن الشماليين، لن نفهم أبدًا سحر البحر. إنني أحب الغابة. أتذكرين الغابة عندنا في يجوروفسكويه؟... هل يمكن في يوم ما أن تَمَّلِيها؟ والصنوبر!... والطحلب!.. وما أجمل فطر «صياد الذباب»! كأنه من الحرير الأطلس الأحمر المطرز بخرز أبيض. ويا للهدوء.. والبرودة.

فقالت آنا:

- بالنسبة لي سيان، إنني أُحب كل شيء. وأُحب أكثر الكل أُختي، فيراي الحكيمة، ألسنا اثنتين فقط في العالم كله!

وعانقت أختها الكبرى ولاذت بها ملصقة خدها إلى خدها وأفاقت فجأة.

- يالي من حمقاء! كأننا في رواية نجلس ونتحدث عن الطبيعة، ونسيتُ تمامًا هديتي لكِ. انظري.. فقط أخشى ألا تعجبك.

وأخرجت من حافظتها اليدوية مفكرة صغيرة في غلاف مدهش: فعلى مخمل قديم ناحل حال لونه الأزرق بفعل الزمن فأصبح رماديًّا تعرجت أسلاك تطريز من الذهب الكابي المخرم في تشابك نادر التعقيد والدقة والجمال.. يبدو أنه من صنع فنان ماهر صبور عاشق لفنه. وكانت المفكرة مثبتة في سلسلة ذهبية دقيقة كالخيط وقد نزعت أوراقها ووضعت بدلًا منها رقائق من العاج.

وقالت فيرا وهي تقبل أختها:

- يا للروعة! يا للجمال! شكرا لكِ. أين حصلتِ على هذا الكنز؟

- في أحد متاجر العاديات. إنكِ تعرفين مَيْلِي إلى التنقيب في المخلفات البالية. وهكذا عثرتُ على كتيب الصلوات هذا. انظري، أترين كيف تُرسم الزخرفة هنا صورة الصليب. صحيح أني لم أعثر إلا على الغلاف فقط، أما الأشياء الأخرى فقد ابتكرتها.. الأوراق والمشابك والقلم. ولكن موليني لم يستطع أن يفهمني مهما شرحت له. كان لا بد من صنع المشابك بنفس أسلوب التطريز كله.. كابية، من الذهب القديم والحفر الدقيق، ولكن اللّه وحده يعلم ما هذا الذي صنعه. أما السلسلة فحقيقية، من البندقية، قديمة جدًّا.

ومسحت فيرا برقة على الغلاف البديع وقالت:

- يا له من ماضٍ سحيق!... (ثم سألت) تُرى كم عمر هذه المفكرة؟

- لا أستطيع أن أُحدِّد بالدقة.. نهاية القرن السابع عشر أو منتصف الثامن عشر تقريبًا...

فقالت فيرا بابتسامة شاردة:

- يا للغرابة... ها أنا أُمسك في يدي بشيء ربما داعبته يد المركيزة بومبادور، أو الملكة أنطوانيت نفسها.. أتعلمين يا آنا.. أنتِ الوحيدة التي يمكن أن تطرأ على ذهنها هذه الفكرة الطائشة.. أن تحوِّل كتيب الصلوات إلى carnet ([1]) حريمي. لكن دعينا نذهب لنرى ماذا يدور عندنا في المنزل.

ودخلنا إلى المنزل عبر شرفة حجرية كبيرة مغطاة من جميع النواحي بغصون كرم «إزابللا» الكثيفة. وكانت العناقيد السوداء الوفيرة التي تفوح منها رائحة ضعيفة كرائحة التوت البري تتدلى ثقيلة بين الأوراق الخضراء الداكنة التي ذهبَّتها الشمس في بعض الأماكن. وساد الشرفة كلها ضوء أخضر خافت، شحب منه وجها المرأتين على الفور.

وسألت آنا:

- هل ستأمرين بعد المائدة هنا؟

- نعم، فكرت في ذلك في البداية... ولكن الأماسي هنا باردة. من الأفضل أن نجلس في غرفة الطعام. وليخرج الرجال إلى هنا إذا أرادوا أن يدخنوا.

- هل سيكون بينهم شخص طريف؟

- لا أعرف بعد. أعرف فقط أن جدنا سيحضر.

فصاحت آنا مشيحة بذراعيها:

- آه يا جدى الرقيق! يا لها من فرحة! يُخيَّل إلى أنني لم أره منذ مائة عام.

- وستأتي أُخت فاسيا، والبروفيسور سبيشنيكوف على ما أظن. آه يا آنا، بالأمس كدت أُجن. إنك تعرفين أن كليهما، جدنا والبروفيسور، يحبان الأكل... ولكن لا يمكن الحصول على شيء لا هنا ولا في المدينة ولو بأي مبلغ. وقد حصل لوقا على سمان في مكان ما - كان قد أَوْصى عليه الصياد - وهو الآن يتفنن في صنع شيء ما منه. وحصلنا على روزبيف لا بأس به، ولكن أو.. إنه الروزبيف الخالد. ويوجد كذلك سرطان ممتاز.

- حسنًا ليس سيئًا إلى هذا الحد. لا تقلقي. وعمومًا، بيني وبينك، أنتِ نفسكِ ضعيفة أمام الطعام الشهي.

- ولكن سيكون هناك شيء نادر. لقد أحضر الصياد اليوم ديك بحر. رأيته بعيني. شيء خرافي. مرعب فعلًا.

وعلى الفور طلبت آنا التي كانت شديدة الفضول في كل ما يخصها ولا يخصها أن يحضروا لها ديك البحر لتراه.

وجاء الطباخ لوقا، الطويل، الحليق، الأصفر الوجه بوعاء كبير أبيض مستطيل كان يحمله بحذر وصعوبة من أذنيه، وهو يخشى أن ينسكب منه الماء على الأرضية الباركيه.

وقال بفخر الطهاة الخاص:

- اثنا عشر رطلًا ونصف يا صاحبة السعادة.. وزناه منذ قريب.

كانت السمكة أكبر من أن يتسع لها هذا الوعاء ، فاستلقت على قاعه وقد طوت ذيلها. وكانت قشورها تتلألأ بلون ذهبي وزعانفها حمراء قانية، وامتد من جانبي وجهها المتوحش الضخـم، جناحان طويلان مطويان كالمروحة، بلون أزرق ناعم. وكان ديك البحر لا يزال حيًّا فأخذ يحرك خياشيمه بنشاط.

ولمست الشقيقة الصغرى بإصبعها الخنصر في حذر رأس السمكة. ولكن الديك خفق بذيله فجأة فجذبت آنا يدها صارخة.

وقال الطاهي وقد أدرك، فيما يبدو قلق آنا:

- لا تقلقي يا صاحبة السعادة، كل شيء سيكون على خير ما يرام. لقد أحضر البلغاري الآن شمامتين.. من النوع الأناناسي. مثل القاوون، ولكن رائحتهما أذكى بكثير واسمحي لي يا صاحبة السعادة أن أسألكِ عن نوع الصلصة التي تفضلين تقديمها مع الديك، صلصة ترتر أم بولندي، أم مجرد بقسمات محمر؟

فقالت الأميرة آمرة:

- افعل ما تراه.. انصرف!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-4-

بدأ الضيوف يتوافدون بعد الساعة الخامسة. وجاء الأمير فاسيلي لفوفتش معه بأخته الأرملة، لودميلا لفوفنا التي تحمل اسم عائلة زوجها دوراسوفا، وهي امرأة ممتلئة بشوش، وصموت إلى درجة غير عادية، وبالشاب الارستقراطي الغني المدلل والماجن فاسوتشوك، الذي كانت المدينة كلها تعرفه بهذا الاسم الدارج، والذي كان محبوبًا في المجتمعات لاجادته الغناء والالقاء وكذلك تقديم الصور الحية والمسرحيات وإقامة الأسواق الخيرية؛ وجاء الأمير فاسيلي لفوفتش أيضًا بعازفة البيانو الشهيرة جيني ريتر، صديقة الأميرة فيرا من أيام الدراسة في معهد سمولني، وبشقيق زوجته نيقولاي نيقولايفتش. ووصل بعدهم زوج آنا بالسيارة في صحبة البروفيسور سبيشنكوف الحليق السمين، الضخم إلى درجة مزرية ونائب المحافظ المحلي فون زك. وجاء آخر الكل الجنرال أنوسوف في عربة لاندو جميلة مستأجرة وبصحبة اثنين من الضباط: العقيد بونماريوف النحيل، الصفراوي المزاج الذي هرم قبل الأوان وأرهقه العمل الإداري الثقيل، وملازم الحرس الخيَّال باختينسكي الذي كان مشهورًا في بطرسبرج كأفضل راقص وكمنظم حفلات لا يجارى.

وهبط الجنرال أنوسوف، ذلك العجوز الفضي البدين الطويل من سلم العربة بصعوبة معتمدًا بإحدى يديه على حاجز مقعد الحوذي، وباليد الأخرى على مؤخرة العربة. وكان يحمل في يده اليسرى بوق سماعة، وفي يده اليمنى عصا ذات طرف من المطاط. كان وجهه ضخمًا أحمر، خشنًا، بأنف لحيم، وعينين مزورتين كنصفىٰ دائرة منتفختين مغضنتين يطل منهما تعبير بشوش مهيب، يقترن بشيء من الاحتقار، الأمر الذي يميز الشخصيات البسيطة الشجاعة، التي كثيرًا ما رأت الموت والخطر عن قرب. وعندما عرفته الشقيقتان عن بعد، هرعتا إلى العربة في الوقت المناسب لتأخذاه من يديه وتسنداه بشيء من الهزل والجد.

وقال الجنرال بصوت غليظ مبحوح رقيق:

- كأني.. أسقف!...

وقالت فيرا بنبرة عتاب خفيف:

- يا جدي العزيز الحبيب! كل يوم ننتظرك، وأنت لا تلقي علينا ولو نظرة.

وضحكت آنا قائلة:

- جدنا أضاع في الجنوب ضميره تمامًا. أعتقد أنه كان بوسعك إن تتذكر ابنتك في العماد. ولكنك تصول مثل دون جوان، يا عديم الحياء، ونسيت تمامًا أننا

هنا...

وعرى الجنرال رأسه المهيب ولثم يدي الشقيقتين بالدور، ثم قبلهما في خديهما، وعاد فقبل يديهما.

وقال وهو يطلق زفرة بين كل كلمة وأُخرى بسبب ضيق التنفس القديم:

- يا بناتي.. مهلًا.. لا تسباني.. أُقسم لكما.. الأطباء الملاعين... طول الصيف وضعوا روماتزمي.. في بلوظة قذرة.. رائحتها فظيعة.. ولم يطلقوا سراحي.. أنتم... أول من أزورهم.. أنا سعيد جدًّا.. أن أراكم.. كي فالحال؟.. أنتِ يا فيرا... سيدة كاملة... أصبحتِ تشبهين... المرحومة أمكِ تمامًا...

متى ستدعونني للعماد؟

- أخشى يا جدى ألا يحدث ذلك أبدًا...

- لا تيأسي.. كل شيء سيأتي.. صلي للّه.. وأنتِ يا آنيا.. لم تتغيري أبدًا.. حتى في الستين من عمركِ.. ستظلين كالجرادة النطاطة... لكن مهلًا دعوني أُقدم لكم السادة الضباط.

فقال العقيد بونماريوف وهو ينحني:

- تشرفت بذلك منذ زمن بعيد.

وقال الخيَّال مكملًا:

- لقد قدمت إلى الأميرة في بطرسبرج.

- حسنًا لأُقدِم لكِ يا آنيا الملازم باختينسكي. راقص وعربيد، ولكنه فارس جيد. هاتَ يا عزيزي باختينسكي من العربة ذلك الـ... هيا يا بنات.. ماذا ستقدمين لنا يا فيرا؟.. إن شهيتي.. بعد نظام المصحة... مثل شهية الملازم... الخريج.

كان الجنرال أنوسوف زميل كفاح وصديقًا مخلصًا للمرحوم الأمير ميرزا - بولاط - توجانوفسكي وبعد وفاة الأمير نقل كل حبه وصداقته الحانية إلى ابنتيه، وكان يعرفهما وهما بعد صغيرتان تمامًا، بل إنه عمَّدَ الأخت الصغرى آنا. وفي ذلك العهد - وحتى الآن - كان قائدًا لحصن كبير في مدينة «ك» ولكنه حصن ملغي تقريبًا، وكان يتردد كل يوم على دار آل توجانوفسكي. وكان الأولاد يعشقونه لِلَهوه معهم ولهداياه وللمقاعد المحجوزة في السيرك والمسرح، ولأنه لم يكن هناك من يلعب معهم بمثل هذا الإمتاع كأنوسوف. ولكن أكثر ما سحرهم وبقى مطبوعًا في ذاكرتهم قصصه عن الحملات والمعارك الحربية والمخيمات والانتصارات والتقهقر، وعن الموت والجراح والصقيع الرهيب.. تلك القصص الملحمية الهادئة المتأنية المفعمة بالصدق،

والتي كان يرويها في الفترة ما بين شاي المساء وتلك الساعة الكئيبة التي يدعون الأطفال فيها للنوم.

كانت هذه القطعة من الماضي تعتبر حسب الأخلاقيات الحالية شخصية هرقلية وبديعة إلى درجة غير عادية. فقد اجتمعت له تلك الملامح البسيطة والعميقة المؤثرة، التي كانت حتى في أيامه تميز الجنود العاديين أكثر مما تميز الضباط، تلك الملامح الروسية الخالصة، ملامح «الفلاح» التي تشكل إذا ما اتحدت صورة سامية، لا تجعل من جندينا أحيانًا مجرد محارب لا يقهر فحسب، بل ترفعه إلى مصاف الشهداء العظام. بل والقديسين تقريبًا.. تلك الملامح التي تتألف من الإيمان الساذج البسيط، والنظرة الصافية البشوش المرحة إلى الحياة، والبسالة العملية الهادئة، والاذعان للموت، والشفقة على المهزومين، والصبر الذي لا يعرف حدودًا، وقوة التحمل البدنية والروحية المذهلة.

وكان أنوسوف قد شارك منذ الحرب البولندية في جميع الحملات، ما عدا الحملة اليابانية. ولقد كان على استعداد للذهاب إلى تلك الحرب دون أدنى تردد، ولكنهم لم يستدعوه، أما هو فكان يسير على قاعدة عظيمة من حيث تواضعها: «لا تلقِّ بنفسك إلى الموت طالما لم يدعوك». وطوال فترة خدمته لم يجلد بل ولم يضرب جنديًّا واحدًا. وأثناء الإنتفاضة البولندية رفض ذات مرة إعدام الأسرى بالرغم من الأمر الخاص الذي صدر له من قائد الفوج. وقال: «إنني مستعد لأن أُعدِم جاسوسًا، بل أقتله بيدي إذا أمرتني. ولكن هؤلاء أسرى، أنا لا أستطيع». قال ذلك ببساطة واحترام، دون أدنى ظل من التحدي أو الخيلاء، وهو ينظر مباشرةً في عيني قائده بعينيه الصافيتين الحازمتين، حتى أنهم بدلًا من أن يعدموه هو الآخر تركوه في سلام.

وفي حرب 1877-1879 ترقى بسرعة إلى رتبة عقيد، رغم حظه القليل من التعليم، أو كما كان هو نفسه يقول إنه لم يتخرج إلا من «أكاديمية الدببة» وشارك في عبور نهر الدانوب، واجتاز البلقان، وقبع في قلعة «شيبكا»، وشارك في الهجوم الأخير على «بليفنا». وأُصيب إصابة بالغة وأربع إصابات خفيفة، وفوق ذلك فقد أُصيب بصدمة في الرأس من شظية قنبلة يدوية. وكان راديتسكي وسكوبليف يعرفانه معرفة شخصية ويكنان له احترامًا بالغًا. وهو الذي قال عنه سكوبليف ذات مرة: «إنني أعرف ضابطًا أشجع مني بكثير.. إنه الرائد أنوسوف».

وعاد من الحرب أصم تقريبًا بسبب شظية القنبلة اليدوية، وبساق مريضة بترت منها ثلاثة أصابع تجمدت أثناء عبور البلقان، وبروماتزم قاس أصابه في «شيبكا». وأرادوا أن يحيلوه إلى التقاعد بعد مرور سنتين من الخدمة في وقت السلم لكن أنوسوف قاوم بعناد. وهنا ساعده نفوذ قائد الناحية الذي

كان شاهد عيان على شجاعته الهادئة عند عبور الدانوب. ولذلك قرروا في بطرسبرج ألا يحزنوا العقيد الجدير فأعطوه وظيفة قومندان مدى الحياة في مدينة «ك»، وهي وظيفة فخرية أكثر منها ضرورية لأغراض الدفاع عن الدولة.

كان جميع أهل المدينة صِغارًا وكِبارًا يعرفونه ويسخرون بطيبة من نقاط ضعفه وعاداته وطريقته في اللبس. وكان دائمًا يسير دون سلاح، في حلة قديمة الطراز وفي عمرة ذات جوانب عريضة ومقدمة مستطيلة ضخمة، ويمسك في يده اليمنى بعصا وفي اليسرى ببوق سماعة، ولا بد في صحبة كلبين سمينين، كسولين مبحوحين، كان طرفا لسانيهما معضوضين دائمًا ومتدليين. فإذا ما صادف أثناء نزهته الصباحية أحدًا من معارفه، كان المارة على بعد عدة شوارع يسمعون صياح القومندان ونُباح كلبيه المتجاوب في اثره.

وككثير من الصم، كان من عشاق الأوبرا المتيمين، وكان صوته «الباص» الحازم يدوي أحيانًا في المسرح كله أثناء أحد الأدوار الثنائية العاطفية: «يا للشيطان، لقد أدى "دو" جيدًا! كأنما قرقش بندقة». ويندلح في المسرح ضحك مكتوم، ولكن الجنرال لم يكن حتى يحدس بذلك، إذ كان يظن بسذاجته أنه قد عبَّر لجاره همسًا عن انطباعه الآني.

وكانت واجبات القومندان تجعله يتردد كثيرًا في صحبة كلبيه المبحوحين على السجن الحربي الرئيسي، حيث كان الضباط السجناء ينعمون بالراحة من عناء الخدمة العسكرية ويشربون الشاي ويلعبون الورق ويتبادلون النكات، وكان يسأل كلًّا منهم باهتمام: «ما اسمك؟ من سجنك؟ ما المدة؟ وما السبب؟» وكان أحيانًا، وبشكل غير متوقع أبدًا، يمتدح أحد الضباط على عمل شجاع قام به وإن كان منافيًا للقانون، أو كان أحيانًا ينهال بالسباب وهو يصرخ حتى يسمع صوته من الشارع. ولكنه، وبعد أن يصرخ حتى الشبع كان يسأل دون أي تمهيد أو توقف من أين يحصل الضابط على غدائه وكم يدفع لقائه. وكان يحدث أحيانًا أن يعترف له أحد الملازمين الضالين المرسلين إلى هنا لمدة حبس طويلة من مكان ناءٍ ليس فيه حتى سجن، بأنه يكتفي بطعام الجنود لأنه لا يملك مالًّا. فكان أنوسوف يأمر على الفور بأن يحضروا للمسكين غداءه من دار القومندان التي لم تكن تبعد عن السجن الحربي أكثر من مائتي خطوة.

وفي مدينة «ك» توثقت صلته بآل توجانوفسكي وربطته بالأطفال أواصر قوية، حتى أصبح من احتياجاته الروحية أن يراهم كل مساء. فإذا حدث أن سافرت الآنسات إلى مكان ما أو كان اضطرت خدمة الجنرال إلى التغيّب. كان يشعر بوحشة حقيقية وتضيق به غرف دار القومندان الواسعة. وكان يأخذ

اجازته كل صيف، فيقضي شهرًا كاملًا في ضيعة آل توجانوفسكي المسماة يجوروفسكويه، والواقعة على بعد خمسين كيلومترًا من «ك».

لقد أضفى كل رقة روحه المكنونة والحاجة الى حب قلبي على هؤلاء الأطفال، وخاصة على الفتاتين، وكان هو نفسه في وقت ما متزوجًا، ولكن ذلك كان منذ أمد بعيد، حتى أنه نسى ذلك. فقد هربت منه زوجته قبل الحرب مع ممثل زائر، أسرتها سترته المخملية ذات الأساور الدانتلا. وظل الجنرال يرسل لها معاشًا حتى وفاتها، ولكنه لم يسمح لها بالعودة إلى المنزل رغم كل مشاهد الندم ورسائلها الضارعة. ولم يكن لديهما أطفال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

–5–

كان المساء هادئًا ودافئًا على غير المتوقع حتى أن لهيب الشموع في غرفة الطعام والشرفة اشتعل دون حراك. وخلال الغداء أضحك الأمير فاسيلي لفوفتش الجميع. كان يتمتع بقدرة غير عادية ومتميزة جدًّا على رواية القصص. وكان يقيم قصته على مشهد واقعي يكون بطله الرئيسي أحد الحاضرين أو أحد المعارف، ولكنه كان يضفي على القصة ألوانًا صارخة وقد اكتسى وجهه ملامح الجد، ويتخذ صوته نبرة عملية إلى حد يجعل السامعين يموتون ضحكًا. وكان اليوم يروي قصة زواج نيقولاي نيقولايفتش الفاشل من سيدة جميلة وغنية. ولم يكن هناك من أساس حقيقي للقصة سوى أن زوج السيدة لم يوافق على طلاقها. ولكن الحقيقة كانت تختلط لدى الأمير بالاختلاق في صورة رائعة. فقد جعل نيقولاي نيقولايفتش الجاد المتكبر دائمًا بعض الشيء يركض ليلًا في الشارع في جواربه فقط، واضعًا حذاءه تحت ابطيه. وقبض الشرطي في إحدى الزوايا على الشاب، ولم يتمكن نيقولاي من إثبات أنه وكيل النائب العام وليس لص ليل إلا بعد شرح طويل عاصف. وكاد الزفاف يتم، حسب قصة الراوي، ولكن في اللحظة الحرجة أضربت عن العمل فجأة عصابة من الشهود المزيفين، المشتركين في القضية، مطالبين بزيادة الأجر. ولما كان نيقولاي بخيلًا (وبالفعل كان بخيلًا بعض الشيء) وخصمًا مبدئيًّا للإضرابات والمظاهرات، فقد رفض رفضًا قاطعًا أن يدفع أكثر، مشيرًا إلى إحدى مواد القانون المدعمة بفتوى محكمة النقض والإبرام. وعندئذ أجاب الشهود المزيفون الغاضبون على السؤال المعروف: «هل يعرف أحد من الحاضرين أية أسباب تمنع عقد الزواج؟» أجابوا في صوت واحد: «نعم نعرف. إن كل أقوالنا أمام المحكمة كانت محض اختلاق أرغمنا عليه السيد النائب بالتهديد والإكراه. أما زوج هذه السيدة، فبصفتنا مطلعين على الأمور نستطيع أن نقول أنه أكبر رجل محترم في العالم، وأنه عفيف كيوسف وطيب كملاك».

واذ التقط الأمير فاسيلي خيط قصص الزواج لم يرحم أيضًا جوستاف إيفانوفتش فريسي، زوج آنا، فروى أنه في اليوم التالي للزفاف حضر مع الشرطة ليطالب بنفي عروسه من بيت والديها باعتبارها لا تحمل بطاقة شخصية منفردة، وترحيلها إلى مقر إقامة زوجها الشرعي. ولم يكن في هذه المزحة من جوانب الحقيقة سوى أن آنا في الأيام الأولى لحياتها الزوجية كانت مضطرة إلى البقاء باستمرار إلى جانب أمها المريضة، لأن فيرا رحلت إلى الجنوب على عجل، فأصبح جوستاف إيفانوفتش المسكين فريسة للكآبة واليأس.

وضحك الجميع وابتسمت آنا بعينيها المزرورتين. وقهقه جوستاف إيفانوفتش عاليًّا وباعجاب، فأصبح وجهه النحيل بجلده الناعم و محجر العينين الغائرين اللامع المشدود، وشعره الخفيف الأشقر المدهون، ومحجري العينين الغائرين، يشبه جمجمة كشفت في ضحكها عن أسنان شائهة. لقد ظل يهيم حبًّا بآنا كما كان في أول أيام الزواج، ويحاول دائمًا أن يكون مجلسه بجوارها، ويداعبها بيده خفية، وكان يغازلها بحب ورضى إلى حد يبعث على الرثاء عليه والحرج له.

وقبل أن تنهض فيرا نيقولايفنا عن المائدة أحصت الضيوف بشكل آلي. واتضح أنهم ثلاثة عشر. ولما كانت ممن يؤمنون بالخرافات فقد قالت لنفسها: «هذا سيئ! كيف لم أفطن من قبل إلى عدهم؟ وفاسيا أيضًا مذنب، لم يقل شيئًا بالتليفون».

وعندما كان المعارف المقربون يجتمعون عند آل شيين أو فريسي، كانوا بعد الغداء عادة يلعبون البوكر لأن كلتا الشقيقتين كانتا مغرمتين بألعاب القمار إلى درجة تثير الضحك. بل لقد وضعت قواعد خاصة بهذا الشأن في منزلي الأسرتين، إذ كان يوزع على جميع اللاعبين بالتساوي أقراص من العظم ذات قيمة معينة، ويستمر اللعب إلى أن تنتقل جميع القطع الى ملكية لاعب واحد، عندئذ ينتهي اللعب في هذا المساء مهما أصر اللاعبون على مواصلته. وكان من المحظور نهائيًّا سحب أقراص جديدة من الخزنة. وقد وُضِعت هذه القواعد الصارمة بناءً على الخبرة، وذلك لكبح جماح الأميرة فيرا وآنا اللتين لم تكونا تعرفان في القمار أية حدود. وبذلك لم يكن مجمل الخسارة يبلغ مائة أو مائتي روبل إلا نادرًا.

وفي هذه المرة أيضًا جلسوا يلعبون البوكر. وأرادت فيرا، التي لم تكن تشارك في اللعب، أن تخرج إلى الشرفة حيث كانوا يجهزون مائدة الشاي، ولكن وصيفتها نادتها فجأة خارج غرفة الجلوس وبطريقة بها بعض الغموض.

وسألت الأميرة فيرا بعدم ارتياح وهي تدخل غرفة مكتبها الصغيرة بجوار غرفة النوم:

- ما هذا يا داشا؟ وما هذا المنظر الأحمق الذي تبدين به؟ ما الذي تقلبينه في يديك؟

ووضعت داشا على الطاولة شيئًا صغيرًا مربعًا، ملفوفًا بعناية في ورقة بيضاء ومربوطًا باحكام بشريط وردي.

وقالت متلعثمة وقد تضرجت لاحساسها بالإهانة:

- أقسم لكِ يا صاحبة السعادة لا ذنب لي.. لقد جاء وقال...

- من هو؟

- ذو القبعة الحمراء يا صاحبة السعادة... رسول.

- وماذا؟

- جاء إلى المطبخ فوضع هذا على الطاولة، وقال «سلميه لسيدتكِ، لها شخصيًّا» فسألته: «ممن؟» فقال: «كل شيء هنا موضح. ثم انصرف على عجل».

- اذهبي والحقى به.

- لا يمكن يا صاحبة السعادة، فقد جاء أثناء الغداء، ولكني لم اجرؤ على ازعاجك يا صاحبة السعادة. كان ذلك من حوالي نصف ساعة.

- حسنًا، اذهبي.

وقصت الشريط بالمقص وألقت به في السلة مع الورقة التي كان مكتوبًا عليها عنوانها. ووجدت تحت الورقة علبة مجوهرات صغيرة من القطيفة الحمراء، يبدو أنها ابتيعت توًّا من المتجر. ورفعت فيرا غطاءها المبطن بحرير سماوي شاحب، فرأت سوارًا ذهبيًّا بيضاويًّا محشورًا في القطيفة السوداء، وفي داخله وُضِع بحرص خطاب مطوى على شكل ثماني أضلاع جميل. وفضت ورقة الخطاب بسرعة. وبدا لها الخط مألوفًا، ولكنها نحتها جانبًا على الفور كأي امرأة لكي تتفحص السوار.

كان من الذهب الرخيص، سميكًا للغاية ولكنه مفرغ، ومرصع من الجانب الخارجي بفصوص عقيق صغيرة قديمة غير مشطوفة جيدًا. ولكن في وسطه برزت خمسة أحجار عقيق مصقولة رائعة تحيط بحجر غريب صغير أخضر. وكان كل واحد منها بحجم حبة البازلاء. وعندما أدارت فيرا السوار بحركة عفوية موفقة أمام ضوء المصباح الكهربائي، التهبت فجأة أضواء حمراء قاتمة حية رائعة، بعيدًا تحت سطح تلك الأحجار الأملس البيضاوي.

وقالت فيرا لنفسها «كأنها دم!» واعتراها قلق مفاجىء.

ثم تذكرت الرسالة ففضتها. وقرأت الكلمات التالية المكتوبة بخط دقيق رائع كخط النساخين.

«صاحبة السعادة، الأميرة

فيرا نيقولايفنا المبجلة!

إنني إذ أهنئكم بكل احترام بعيد ميلادكم السعيد المشرق، لأتجاسر على رفع هديتي المتواضعة المخلصة لكم».

فقالت فيرا لنفسها بعدم ارتياح: «آه.. إنه هو!» ولكنها مع ذلك واصلت قراءة الرسالة...

«إنني ما كنت لأسمح لنفسي أبدًا بأن أُقدم لكم شيئًا اخترته بنفسي، فلست أملك الحق في ذلك، ولا الذوق الرفيع، بل - وأصارحكم - ولا النقود. وعمومًا فإنني أعتقد أنه ليس هناك في العالم كله كنز جدير أن يزينكم.

ولكن هذا السوار كان ملكًا لأُم جدتي، وكان آخر من حمله المرحومة والدتي. وستجدون وسط الأحجار الكبيرة حجر أخضر. إنه نوع نادر للغاية من العقيق.. عقيق أخضر. وحسب الإعتقاد القديم الذي بقى في عائلتنا، فهذا الحجر يستطيع أن يهب المرأة التي تحمله القدرة على معرفة الغيب، ويبعد عنها الأفكار المرهقة، أما الرجال فيحميهم من الموت غير الطبيعي.

وقد نقلت جميع الأحجار من السوار الفضي القديم إلى هنا بكل دقة، ولهذا فبوسعكم أن تكونوا على ثقة من أن أحدًا قبلكم لم يحمل هذا السوار.

وبامكانكم أن تلقوا على الفور بهذه اللعبة المضحكة، أو تهدوها إلى أى شخص آخر، ولكني سأكون سعيدًا لمجرد أن يديكم قد داعبتها.

إنني أتوسل إليكم ألا تغضبوا عليَّ. فإنني أحمرُّ خجلًا عندما أتذكر كيف تجاسرت منذ سبعة أعوام على أن أوجه إليكم، أنتم الآنسة النبيلة، رسائل حمقاء فظيعة، بل وأن أنتظر ردًّا عليها. ولكن لم يبقَّ في نفسي الآن سوى التبجيل والعبادة الخالدة والولاء الذليل. وليس بوسعي الآن إلا أن أتمنى لكم السعادة كل لحظة. وأن أفرح إذا كنتم سعداء. إنني أركع في خيالي حتى ألامس الأرض للأثاث الذي تجلسون عليه، وللأرض التي تسيرون عليها، وللأشجار التي تلمسونها عرضًا، وللخادمة التي تتحدثون إليها. ولم يعد لديَّ حتى حسد للناس أو الأشياء.

استسمحكم العفو مرة أُخرى لازعاجي لكم بهذه الرسالة الطويلة التي لا داعي لها.

عبدكم المطيع حتى الموت وما بعد الموت ج. س. ج.»

«هل أُطْلع فاسيا عليها أم لا؟ واذا أطلعته.. فمتى؟ الآن. أم بعد انصراف الضيوف؟ كلا، مِن الأفضل فيما بعد. فلو عرضتها الآن فلن يكون هذا المسكين هو وحده المضحك، بل سأكون معه في نفس الوضع».

هكذا فكرت الأميرة فيرا وهي لا تستطيع أن تحوِّل عينيها عن الأضواء الخمسة الحمراء الدامية، المرتعشة داخل أحجار العقيق الخمسة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

–6–

لم يتمكنوا إلا بعد لأي من جعل العقيد بونماريوف يجلس إلى مائدة البوكر. وأخذ يقول أنه لا يعرف هذه اللعبة، وأنه عمومًا لا يعترف بالقمار حتى ولو لمجرد التسلية، وأنه يحب «الفنت» فقط ويلعبه جيدًا إلى حدٍّ ما. لكنه لم يصمد أمام التوسلات، وجلس أخيرًا.

وفي البداية اضطروا إلى تعليمه وتصويبه، لكنه سرعان ما استوعب قواعد البوكر، فلم يمر نصف ساعة إلا وكانت جميع القطع أمامه.

وقالت آنا بغضب كوميدي:

- هذا لا يصح! على الاقل دعنا ننفعل قليلًا.

وكان هناك ثلاثة من الضيوف، هم سبيشنيكوف والعقيد، ونائب المحافظ، ذلك الألماني المحدود والممل والمهذب، كانوا من النوع الذي لم تعرف فيرا أبدًا كيف تسليهم أو ما الذي تفعله معهم. ولذلك رتبت لهم لعبة الفنت واجلست رابعهم جوستاف إيفانوفتش. وأسبلت آنا جفنيها من بعيد، علامة الامتنان لها. ففهمت شقيقتها اشارتها على الفور. كان الجميع يعرفون أنه إذا لم يُجلسوا جوستاف إيفانوفتش إلى مائدة اللعب فسيظل طوال المساء يحوم حول زوجته كأنه مربوط بها، ويكشر كاشفًا عن أسنان نخرة على وجه كالجمجمة مفسدًا على زوجته مزاجها.

أما الأن فقد سارت السهرة بانتظام، دون كلفة وفي جوٍّ من المرح. وغنى فاسوتشوك بصوت خافت وبمصاحبة جيني ريتر أغانى إيطالية شعبية وأغاني شرقية لروبنشتين. وكان صوته ضعيفًا ولكنه سلس وصادق وذو نبرة رقيقة. ورغم أن جيني ريتر كانت عازفة متشددة للغاية، إلا أنها كانت تصاحبه دائمًا عن طيب خاطر. وعمومًا فقد قيل أن فاسوتشوك يغازلها...

وعلى أريكة في الزاوية كانت آنا منهمكة في مغازلة الفارس. واقتربت فيرا وأخذت تنصت وهي تبتسم.

وقالت آنا بمرح وهي تزر عينيها التتريتين الرقيقتين الماكرتين ناظرةً إلى الضابط:

- كلا، كلا، أرجوك لا تضحك. أنت طبعًا تعتقد أنك إذا ركضت غير عابئ بشيء في مقدمة الفرسان وتخطيت الموانع في السباق، فهذا هو العمل. لكن هلا نظرت إلى عملنا. لقد انتهينا لتونا من يانصيب ذي سحب فوري. أتظن ان ذلك كان سهلًا؟ أبدًا! زحام، وجو خانق بالدخان، بوابون وحوذية، لا أعرف لهم أسماء... والجميع يحاصرونك بشكاواهم، وبمشاكل ما... وتقف طول النهار

على قدميك، طول النهار. ثم هناك بعد ذلك حفلة لصالح العاملات الذهنيات ذوات الدخل المحدود، ثم حفلة راقصة...

فقاطعها باختينسكي:

- آمل ألا تحرميني فيها من رقصة مازوركا معك؟

وانحنى قليلًا ودق بمهمازيه تحت الكرسي.

- أشكرك... لكن أكثر نقطة ضعف عندي هي ملجأنا... أتفهم، ملجأ للأطفال ذوي السلوك السيىء...

- أوه... افهم جيدًا. لا بد أن ذلك مضحك جدًّا، أليس كذلك؟

- كفى، كيف لا تخجل من الضحك على أشياء كهذه. فهل تدرك أين مأساتنا؟ أننا نريد أن نأوي هؤلاء الأطفال المساكين، ذوي النفوس المليئة بالعيوب الموروثة والأمثلة السيئة، نريد أن نحيطهم بالدفء، والحنان...

- هم!...

- ... وأن نسمو بأخلاقهم، ونوقظ في نفوسهم الإحساس بالواجب.. هل تفهمني؟ وإذا بنا نتلقى كل يوم مئات، بل آلاف الأطفال، ولكن ليس بينهم طفل واحد سيىء السلوك! وإذا سألت الوالدين: أليس طفلكم سيىء السلوك، فإنهم يغضبون، تصور! وها هو الملجأ مفتوح، ومضاء، وكل شيء جاهز، وليس فيه ربيب واحد أو ربيبة! لم يبقَّ إلا أن نُعلن عن جائزة لكل من يأتي بطفل سيىء السلوك.

فقاطعها الفارس بنبرة جدية متسللة:

- يا آنا نيقولايفنا.. لماذا جائزة؟ خذيني دون مقابل. أُقسم لكِ أنكِ لن تجدي طفلًا اسوأ مني سلوكًا في أي مكان.

- كفى! لا يمكن الكلام معك في أمر جِدي.

وقهقهت وهي تستلقي على ظهر الأريكة، بينما لمعت عيناها.

كان الأمير فاسيلي لفوفتش جالسًا إلى مائدة مستديرة يعرض على أُخته وعلى أنوسوف وزوج أُخته ألبومًا عائليًّا فكاهيًّا برسوم رسمها بنفسه، وضحك الأربعة من قلوبهم، فجذب هذا إليهم شيئًا فشيئًا الضيوف الذين لم يكونوا مشغولين باللعب.

كان الألبوم بمثابة إضافة، أو رسوم مصاحبة لقصص الأمير فاسيلي. فكان يعرض بهدوئه التليد مثلًا «قصة المغامرات العاطفية للجنرال الشجاع

أنوسوف في تركيا وبلغاريا، وغيرهما من البلدان» و«مغامرات الأمير الغندور نيقولا بولاط توجانوفسكي في مونت كارلو» وغيرها.

وقال وهو يوجه نظرة ساخرة سريعة إلى أُخته:

- سترون الآن يا سادة وصفًا قصيرًا لحياة شقيقتنا المحبوبة لودميلا لفوفنا. القسم الأول: الطفولة. «شبَّ الصغير، وكان يدعى ليما».

وظهرت على ورقة الألبوم هيئة فتاة صغيرة مرسومة على طريقة الأطفال عن عمد، بزاوية البروفيل ولكن بعينين، وبخطين متكسرين بارزين من تحت الجونلة بدلًا من الساقين، وبأصابع نافرة من يدين ممدودتين.

وضحكت لودميلا لفوفنا وقالت:

- لم يدعني أحد «ليما» أبدًا.

- القسم الثاني: الحب الأول. الخيَّال اليونكر يقدم للآنسة ليما أشعارًا من صنعه وهو يجثو على ركبتيه. وفي هذه الأشعار أبيات هي حقًّا في روعة حبات اللؤلؤ:

وساقك الرائعة البهاء

تجسيد رغبة ليس لها مثيل.

وها هي الصورة الحقيقية لتلك الساق.

أما هنا فنجد اليونكر يحرض ليما البريئة على الهرب من بيت والديها. وهنا عملية الهرب ذاتها. أما هذا فموقف حرج، اذ يلحق الأب الثائر بالهاربين. ويلقي اليونكر الجبان بالتبعة كلها على ليما المسكينة:

ضيعت ساعة على التزويق والتبرج

حتى أدركتنا المطاردة الرهيبة

فلتتصدى إذن لها وحدك

أما أنا فهربًا أفر.

وبعد قصة الآنسة ليما جاءت رواية أخرى هي «الأميرة فيرا وعامل التليغراف العاشق»

وقال فاسيلي لفوفتش موضحًا بجدية:

- إن هذه القصيدة المؤثرة لم تسطر إلا بالريشة والأقلام الملونة فقط. أما النص فيجري إعداده.

وقال أنوسوف:

- هذا شيء جديد، لم أره من قبل.

- آخر طبعة. حدث جديد في سوق الكتب.

ولمست فيرا كتفه برقة وقالت:

- من الأفضل لا داعي.

ولكن فاسيلي لفوفتش إما لم يسمع ما قالته أو أنه لم يعره اهتمامًا.

- تعود بداية القصة إلى عصور ما قبل التاريخ. ففي يوم رائع من أيام مايو تسلمت فتاة تُدعى فيرا بالبريد رسالة تحمل صورة زوج حمام يتبادل القبل. وها هي الرسالة. وها هو الحمام.

وتحتوي الرسالة على إعتراف حار بالحب، مكتوب ضد جميع قواعد الإملاء. وتبدأ الرسالة هكذا: «يا رائعتي الشقراء.. أنتِ التي... بحر عاصف من اللهيب يتأجج في صدري. ونظرتك قد أنشبت أسنانها في صدري الممزق كأفعى سامة» إلخ. إلخ.. وفي النهاية توقيع متواضع: «من حيث الخدمة تحت السلاح أنا عامل تليغراف فقير، ولكن مشاعري جديرة بالميلورد جيورج. إنني لا أجرؤ على البوح باسمي كاملًا، لأنه اسم بذيء جدًّا. ولذلك أوقع بالأحرف الأولى فقط: ب. ب. ج. أرجو إرسال الرد على شباك البريد». وهنا تستطيعون يا سادة أن تروا صورة ذلك العامل، المرسومة بالأقلام الملونة بشكل موفق.

وقلب فيرا مصاب (ها هو القلب وها هو السهم). ولما كانت فتاة نبيلة الخلق ومهذبة فقد عرضت الرسالة على والديها الموقرين، وكذلك على صديق طفولتها وخطيبها الشاب الجميل بمرور فاسيا شيين. وها هو الرسم. وبالطبع، بمرور الوقت، سنضع هنا توضيحات شعرية للرسوم.

ويرد فاسيا شيين دبلة الخطوبة لفيرا وهو ينتحب قائلًا: «لست أجرؤ على تعكير صفو سعادتك، لكني أتوسل إليك ألا تتخذي الخطوة الحاسمة على الفور. فكري وتمعني، واختبري صدق شعورك وشعوره. إنك لا تعرفين الحياة يا طفلتي، وتحلقين كالفراشة المتهالكة على النار الوهاجة. أما أنا.. فيا للحسرة! إنني أعرف ما هو المجتمع البارد المنافق. فلتعلمي أن عمال التليغراف جذابون لكنهم ماكرون. فهم يجدون لذة غير مفهومة في أن يخدعوا بجمالهم الأبي ومشاعرهم المزيفة ضحية غِرَّة ويسخروا منها بقسوة».

ويمر نصف عام. وتنسى فيرا في خضم فالس الحياة عاشقها وتتزوج من الشاب الجميل فاسيا، ولكن عامل التليغراف لا ينساها. وها هو يتنكر في زي

منظف المداخن، ويلوث نفسه بالسناج ويتسلل إلى مخدع الأميرة فيرا. وها أنتم ترون آثار أصابعه الخمسة وشفتيه في كل مكان: على الأبسطة، والوسائد، على ورق الجدران، وحتى على الباركيه.

وها هو يرتدي زي امرأة قروية ويلتحق بمطبخنا لغسل الأطباق. ولكن تودد الطاهي لوقا المبالغ فيه يجعله يركن إلى الفرار.

وها هو في مستشفى المجانين. وها هو قد ترهبن. ولكنه يواظب كل يوم على إرسال الخطابات العاطفية الملتهبة إلى فيرا. وفي تلك المواضع التي تسقط فيها دموعه على الورق يسيح الحبر فيصبح بقعًا.

وها هو أخيرًا يموت، ولكنه يوصي لفيرا قبل وفاته بزرين من أزرار حلته الرسمية وبقارورة عطر مملوءة بدموعه...

- من يريد شايًّا يا سادة؟ سألت فيرا نيقولايفنا الضيوف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

–7–

كان الغسق الخريفي الطويل يرسل آخر أضوائه. وانطفأ آخر خيط أحمر رفيع كالشق، كان يتوهج في أقصى أطراف الأفق بين سحابة زرقاء والأرض. ولم تعد تبين لا الأرض ولا الأشجار ولا السماء. وتراقصت فوق الرأس رموش نجوم كبيرة في ظلمة الليل، بينما ارتفع شعاع أزرق من الفنار كعمود رفيع إلى أعلى مباشرة وانسكب على قبة السماء دائرة رقيقة ضبابية مضيئة. وتهافتت فراشات الليل على أغطية الشموع الزجاجية. ومن الظلام والبرودة تضوع شذى زهور الطباق الأبيض النجمية أكثر حدة.

وكان سبيشنيكوف ونائب المحافظ وبونماريوف قد رحلوا منذ فترة طويلة، بعد أن وعدوا بإعادة الخيول من محطة الترام لتحمل القومندان. وجلس بقية الضيوف في الشرفة. وأجبرت الشقيقتان الجنرال أنوسوف، رغم احتجاجه، على ارتداء المعطف، ودثرتا ساقيه ببطانية ثقيلة. وكانت أمامه زجاجة نبيذه الأحمر المفضل Pommard، بينما جلست فيرا وآنا عن يمينه وشماله، تحيطان الجنرال برعايتهما، وتملآن كأسه الرقيقة بالنبيذ الغليظ الثقيل، وتقربان منه الكبريت، وتقطعان الجبن وما إلى ذلك. وأسبل القومندان العجوز جفنيه من شدة المتعة.

وقال العجوز وهو يتطلع إلى لهب الشموع ويهز رأسه في شرود:

- نعم... الخريف، الخريف، الخريف.. ها قد آن الأوان لأرحل أنا أيضًا. كم آسفُ لذلك! الآن فقط حلت أجمل الأيام، فما أجمل أن تعيش هنا على شاطىء البحر وتستمتع بالهدوء والسكينة...

فقالت فيرا:

- فلتبقَّ معنا يا جدي.

- لا أستطيع يا عزيزتي، لا استطيع... الخدمة.. الإجازة انتهت. طبعًا كان أجمل لو بقيت. انظري إلى الورود كيف تتضوع... إنني أشم رائحتها من هنا. أما في الصيف، في الحر فلم تنتشر رائحة زهرة واحدة.. اللهم إلا الأكاسيا البيضاء.. وحتى هذه كانت رائحتها كرائحة الحلوى.

وأخرجت فيرا من المزهرية وردتين صغيرتين، واحدة وردية والأُخرى كارمن، ووضعتهما في عروة معطف الجنرال.

وقال أنوسوف:

- شكرًا يا فيرا.

وأمال رأسه إلى باقة المعطف وشم الوردتين، وفجأة ابتسم ابتسامة عجوز رائعة.

- أذكر عندما وصلنا إلى بوخارست وتوزعنا على الشقق. وذات مرة كنت أسير في الشارع، وفجأة غمرتني رائحة ورد نفاذة فتوقفت. فرأيت قارورة رائعة من الكريستال بها زيت ورد، موضوعة بين جنديين، وكان الجنديان يدهنان به حذائيهما وترابيس بندقيتيهما. فسألتهما: «ماذا معكما؟» فأجابا: «زيت ما يا صاحب السمو، وضعناه على العصيدة فلم ينفع، طعمه مُر، ولكن رائحته طيبة». ومنحتهما روبلًا فأعطياني القارورة بكل سرور. كان ما تبقى فيها من زيت لا يزيد على النصف، ولكن نظرًا لارتفاع سعره فقد كان يساوي ما لا يقل عن مائتي روبل. ولكن الجنديين كانا مسرورين فقالا: «وها هو يا صاحب السمو فول تركي، غليناه في الماء كثيرًا، ولكنه لم ينضج، هذا الملعون». وكانت تلك حبوب البن، فقلت لهما: «إنه مفيد للأتراك فقط، أما الجنود فلا ينفعهم». ولحسن الحظ أنهم لم يلتهموا الأفيون، فقد رأيت في بعض الأماكن أقراصه وقد ديست في الوحل.

وقالت آنا:

- خبرني يا جدي بصراحة.. هل شعرت بالخوف أثناء المعارك؟ هل كنت تخاف؟

- يا له من سؤال غريب يا آنا.. طبعًا خفت. إياكِ أن تصدقي من يزعم لكِ أنه لم يخف، وأن صفير الرصاص كان بالنسبة له كالموسيقى العذبة. فهو إما معتوه وإما مفاخر. الجميع يخافون بنفس الدرجة. لكن بعضهم ينهار بسبب الخوف، بينما يسيطر الآخرون على أعصابهم. وهكذا فالخوف يبقى دائمًا هو الخوف، ولكن القدرة على ضبط النفس تزداد بالخبرة. ومن هنا يظهر الأبطال والشجعان. هكذا. ولكني خفت ذات مرة لدرجة الموت.

فصاحت الشقيقتان بصوت واحد:

- احكِ لنا يا جدي.

كانتا إلى الآن تصغيان إلى روايات أنوسوف بنفس الإعجاب الذى كانتا تصغيان به في طفولتهما المبكرة. حتى أن آنا وضعت مرفقيها لا إراديًّا وبشكل طفولي على الطاولة، واسندت ذقنها على ظهر راحتيها المعقودتين. كان في روايته الساذجة المتأنية نوع من السحر المريح. واتسمت تركيبات جمله التي كان يروي بها ذكرياته الحربية بطابع غريب غير متقن، أميل قليلًا إلى طابع الجمل المكتوبة، وان كان ذلك عن غير قصد، كأنما كان يروى وفق نمط قديم لطيف.

وقال أنوسوف:

- القصة قصيرة جدًّا. كان ذلك في «شيبكا»، في الشتاء، بعد أن أُصبت بصدمة في رأسي. كنا أربعة نسكن في ملجأ. وهناك وقعت تلك الحادثة الرهيبة. فحينما استيقظت من الفراش ذات صباح، خُيِّل إليَّ أنني لست ياكوف، بل نيقولاي، ولم أستطع أبدًا أن أُبدد من نفسي هذا الإعتقاد. وعندما لاحظت أنني أفقد عقلي صرخت طالبًا أن يحملوا لي ماء، فبللت رأسي، وعاد إليَّ عقلي.

وقالت عازفة البيانو جيني ريتر:

- إنني أتصور يا ياكوف ميخائيلوفتش كم من الانتصارات احرزت على النساء هناك. فلا بد أنك كنت جميلًا جدًّا في صباك.

فصاحت آنا:

- أوه.. جدنا الآن أيضًا فاتن!

فقال أنوسوف وهو يبتسم بهدوء:

- لم أكن فاتنًا ولكني لم أكن مهجورًا. ففي بوخارست إياها وقعت حادثة مؤثرة. فعندما دخلنا المدينة قابلنا سكانها في الميدان بطلقات المدافع، مما حطم كثيرًا من النوافذ. ولكن تلك النوافذ التي كانت موضوعة عليها أكواب بها ماء لم تتحطم. أما كيف عرفت ذلك فإليكم السبب. فعندما دخلت الشقة المخصصة لى رأيت قفصًا صغيرًا منخفضًا موضوعًا على النافذة، وفوقه زجاجة من البلور كبيرة الحجم بها ماء شفاف، وكانت تسبح فيها أسماك ذهبية، وبينها جلس عصفور كنار على نتوء صغير. كنار في الماء! أدهشني ذلك، ولكني عندما تفحصت الزجاجة وجدت قاعها عريضًا وناتئًا في وسطه، فكان بوسع الكنار أن يطير إلى هناك ويجلس بسهولة. وبعد ذلك صارحت نفسي بأنني لست نبيه الخاطر أبدًا.

دخلت الدار فرأيت امرأة بلغارية جميلة جدًّا، فاطلعتها على التصريح بالإقامة، وسألتها بالمناسبة عن سر بقاء نوافذهم سليمة بعد قصف المدفعية، فأوضحت لي أن ذلك بسبب الماء. كذلك أوضحت لي سر الكنار، أوه كم كنت بليدًا!... وأثناء الحديث التقت نظراتنا، فسرت بيننا شرارة، كالشرارة الكهربائية، فشعرت أنني وقعت في حبها فورًا، بعنف وبلا رجعة.

وصمت العجوز، واحتسى قطرات من النبيذ الأسود بحذر.

فسألته عازفة البيانو:

- ولكنك بحت لها بحبك فيما بعد؟

- هم... بالطبع تصارحنا.. لكن دون كلمات. وقد حدث ذلك على النحو التالي...

فقاطعته آنا وهي تضحك بخبث:

- أرجو يا جدي ألا تجعلنا نحمر خجلًا؟

- كلا، كلا، كانت قصة حب مؤدبة جدًّا. أتدرين، حيثما مكثنا للإقامة كان سكان المدن يعاملوننا أحيانًا بخفة وبصرامة أحيانًا أخرى، أما في بوخارست فقد كان السكان يعاملوننا ببساطة، لدرجة أنه عندما أخذت أعزف على الكمان ذات مرة، ارتدت الفتيات ثيابهن الجميلة على الفور وجئن ليرقصن، ثم أصبح ذلك شيئًا مألوفًا كل يوم.

وذات مساء، أثناء الرقص على ضوء القمر، دلفتُ إلى المدخل الذي كانت تختبىء فيه حسنائي البلغارية. وعندما رأتني تظاهرت بأنها تنقي أوراق الورد الجافة، التي، بالمناسبة، يجمعها السكان هناك أكياسًا كاملة. ولكني عانقتها وضممتها إلى قلبي، وقبَّلتها عدة مرات.

ومنذ ذلك التاريخ كنت أُسرع إلى محبوبتي عندما يظهر القمر مع النجوم في السماء. فأنسى معها مؤقتًا كل مشاغل النهار. وعندما حان وقت رحيلنا عن تلك البقعة، تبادلنا القسم بأن نظل على حبنا الخالد، وافترقنا إلى الأبد.

وسألت لودميلا لفوفنا بخيبة أمل:

- وهذا كل ما هنالك؟

فقال القومندان معارضًا:

- وماذا تريدين أكثر؟

- كلا يا ياكوف ميخائيلوفتش، عفوًا، فليس هذا حبًّا، بل مغامرة ضابط جيش عابرة.

- لست أدري يا عزيزتي، إي واللّه لا أدري، أكان ذلك حبًّا أم شعورًا آخر...

- كلا.. خبرني.. أحقًّا لم تجرب الحب الحقيقي أبدًا؟ أتدري، ذلك الحب الذي أقصد.. الذي.. يعني.. الحب المقدس، الطاهر، الخالد.. الحب السامي.. أحقًّا لم تحب؟

فاضطرب العجوز وقال وهو ينهض من كرسيه:

- لن أستطيع في الحقيقة أن أرد عليكِ. يبدو أنني لم أحب. في البداية لم يكن لديَّ وقت: فالشباب، والحفلات والورق، والحرب... بدا لي لن تكون هناك نهاية للحياة والشباب والصحة. ثم حينما نظرت حولي اكتشفتُ أنني أصبحت

طللًا... حسنًا، والآن لا تبقيني أكثر من ذلك يا فيرا.. سأودع.. - والتفت إلى باختينسكي - يا خيَّال، الليلة دافئة، فلنمشِ لملاقاة العربة.

فقالت فيرا:

- وأنا أيضًا سأذهب معك يا جدي.

وأسرعت آنا تقول:

- وأنا.

وقبل أن تذهب اقتربت من زوجها وقالت له بصوت خافت:

- اذهب وانظر.. هناك في درج طاولتي علبة حمراء وفيها رسالة. اقرأها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

–8–

سارت آنا و باختينسكي في المقدمة، وتبعهما القومندان، على بعد حوالي عشرين خطوة، متأبطًا ذراع فيرا. كان الليل حالكًا، حتى أنه في الدقائق الأولى وقبل أن تتعود العيون على الظلمة بعد النور، اضطروا إلى تلمس الطريق بالأقدام. وكان على أنوسوف، الذي احتفظ رغم أعوامه بحدة بصر مدهشة. أن يساعد رفيقته. وكان بين حين وآخر يمسح براحته الباردة الكبيرة برقة على ذراع فيرا المستلقية خفيفة على ثنية كمه.

وفجأة قال الجنرال كأنما يواصل بصوت مسموع حبل أفكاره:

- يا لها من مضحكة لودميلا لفوفنا هذه. كم لاحظت في حياتي مثل ذلك: ما إن تبلغ المرأة من الخمسين، خاصة إذا كانت أرملة أو عانسًا، حتى تتوق إلى اللف والدوران حول حب الآخرين. فهي إما تتجسس وتتشفى وتردد الأقاويل، وإما تقحم نفسها لتدبير سعادة الغير، وأما تلوك صمغًا كلاميًّا عن الحب السامي. ولكني أريد أن أقول أن الناس في زماننا لم يعودوا قادرين على الحب. إنني لا أرى حبًّا حقيقيًّا. وحتى في زماني لم أره!

فقالت فيرا معارضة بلطف وهي تضغط قليلًا على ذراعه:

- كيف ذلك يا جدي؟ لماذا الافتراء؟ أنت نفسك كنت متزوجًا. ألا يعني هذا أنك أحببت فعلًا؟

- لا يعني شيئًا على الإطلاق يا فيرا العزيزة. أتدرين كيف تزوجت؟ نظرت فإذا بجواري فتاة نضرة كانت تتنفس فيعلو صدرها ويهبط تحت البلوزة. وتسدل رموشها، التي كانت طويلة جدًّا. فتتضرج بالحمرة. وكانت بشرة خديها رقيقة ناعمة، وعنقها أبيض كله براءة، وذراعاها لينتين دافئتين. يا للشيطان! ومن حولك يروح والداها ويجيئان، ويتنصتان وراء الأبواب، ويتطلعان إليك بعيون حزينة مستكينة كعيون الكلاب. وعندما تنصرف تتبادل قبلات سريعة وراء الباب... وأثناء تناول الشاي تمسّك ساق تحت المائدة كأنما عفوًا... وانتهى كل شيء. «يا عزيزي نيكيتا انطونيتش، لقد جئتكم طالبًا يد ابنتكم. صدقني أنها ملاك طاهر...». وتدمع عينا أبيها، وينهال عليك بالقبلات... «يا عزيزي! كنتُ أرى ذلك منذ بعيد... فليهبكم اللّه... فلترع هذا الكنز...». ثم بعد ثلاثة أشهر يسير هذا الكنز المقدس في رداء رث وفي حذاء دون جورب. وشعرها مشعث، خفيف، مملوء بمشابك تجعيد الشعر، وتتعارك مع الخدم كالطاهية، وتتغنج مع الضباط الشبان وتتلوى وتتقصع وتقلب عينيها. ولسبب ما تدعو زوجها أمام الناس بـ«جاك».. أتدرين، تقولها من الأنف، ممطوطة. امرأة مبتذلة، ممثلة، رثة، بخيلة.. وعيونها تطفح بالزيف... لقد مرَ كل ذلك الآن

وهدأت النفس واستقرت. بل إنني ممتن في قرارة نفسي لذلك الممثل... أحمدُ اللّه أن لم يكن لدينا أطفال...

- هل غفرت لهما يا جدي؟

- ليس الغفران هو الكلمة المناسبة هنا يا فيرا. في البداية كنت كالمجنون. ولو رأيتهما آنذاك لقتلتهما معًا بلا شك. ثم هدأت نفسي بالتدريج، ولم يبقَّ فيها شيء سوى الاحتقار. وهذا حسن. فقد خلصني اللّه من إراقة الدم عبثًا. وفوق ذلك فقد نجوت من المصير العام لمعظم الأزواج. ترى ماذا كنت الآن لولا تلك الصدفة المزرية؟ جَملًا محملًا بالأثقال، متساهلًا مُشينًا، متسترًا، بقرة حلوب، ستارًا، قطعة أثاث منزلية ضرورية... لا، لا يا فيرا، الخير فيما حدث.

- أبدًا، أبدًا يا جدي، اعذرني ولكن الذي يتكلم فيك الآن هو صوت الإساءة السابقة.. إنك تعمم تجربتك التعيسة على البشرية كلها. خذني مثلًا، أنا وفاسيا، هل يمكن اعتبار زواجنا غير سعيد؟

صمت أنوسوف طويلًا، ثم قال متباطئًا وعلى مضض:

- حسنًا.. لنقل أن ذلك استثناء... ولكن في معظم الأحوال.. لماذا يتزوج الناس؟ لنأخذ على سبيل المثال المرأة. إنه الخجل من أن تبقى عانسًا، وخاصة إذا كانت رفيقاتها قد تزوجن، من الصعب أن تبقى عالة على الأسرة، وهو الأمل بأن تصبح ربة البيت والمتصرفة فيه. أن تصبح سيدة.. مستقلة... وفوق ذلك فهناك الحاجة، الحاجة الجسدية المباشرة إلى الأمومة، وإلى البدء في بناء عش خاص. أما الرجال فلديهم دوافع أخرى. هناك أولًا التعب من حياة العزوبية، ومن الفوضى في غرف البيت، ومن طعام الحانات، من القذارة وأعقاب السجائر، من الملابس الممزقة والمبعثرة، من الديون، من الأصدقاء القليلي الذوق.. إلخ.. إلخ... وثانيًا الإحساس بأن الحياة العائلية أجدى وأكثر صحة وتوفيرًا. وثالثًا التفكير بأنك ستموت. ولكن أولادك سيكونون هم الجزء الذي يبقى منك مع ذلك في الدنيا... شيء أشبه بوهم الخلود. ورابعًا هناك إغراء البراءة، كما في حالتي. وفوق ذلك، فهناك أحيانًا فكرة الحصول على الصداق. فأين الحب إذن؟ الحب المنزه، المتفاني الذي لا يطمع في مكافأة؟ ذلك الحب الذي يقولون عنه «أقوى من الموت؟» أتعلمين، إن ذلك الحب الذي يجعلك مستعدًا للقيام بأية بطولة في سبيله، إلى التضحية بحياتك، إلى تحمل العذاب.. هذا الحب ليس مشقة بل سعادة. مهلًا، مهلًا يا فيرا، أتريدين ثانيةً أن تستشهدي بزوجك فاسيا؟ أؤكد لكِ أنني أحبه. إنه شاب طيب. ومن يدري، ربما أظهر المستقبل حبه في ضوء من الجمال الباهر. لكن حاولي أن تفهمي عن أي حب أتحدث. الحب يجب أن يكون مأساة.. أعظم

أسرار الكون! ولا يجب أن تمسه أية راحة من راحات الحياة ولا أية حسابات أو مساومات.

فسألت فيرا بهمس:

- هل رأيت حبًّا كهذا يا جدي؟

فأجاب العجوز بحزم:

- كلا. صحيح أنني أعرف حالتين مشابهتين. ولكن واحدة منهما أملتها الحماقة.. أما الثانية فـ.. هكذا.. تبعث على الرثاء... إذا أردتِ رويتها لكِ.. إنها حكاية قصيرة.

- أرجوك يا جدي.

- حسنًا في أحد أفواج فرقتنا (ليس فوجنا على أي حال) كانت هناك زوجة قائد الفوج. آه. يا فيرا، يا لها من سحنة شائهة. امرأة معروقة، حمراء، طويلة، نحيلة، واسعة الفم... كان الطلاء يتساقط منها كما يتساقط من منزل قديم في موسكو. كانت في الفوج مثل مسالينا ([2]): المزاج الحاد، التسلط، احتقار الآخرين، الولع بالتغيير. وفوق كل ذلك كانت مدمنة مورفين.

وذات مرة، في الخريف أرسلوا إلى الفوج ضابطًا جديدًا، مثل عصفور فرخ، فقد كان متخرجًا من الكلية الحربية لتوِّه. وبعد شهر استولت هذه البغلة العجوز عليه تمامًا. أصبح لها الوصيف والخادم والعبد ومراقصها الدائم في الحفلات، وحامل مروحتها ومنديلها، ويخرج إلى الصقيع بالسترة فقط ليستدعي عربتها. يا له من شيء فظيع أن يضع صبي يانع طاهر حبه الأول تحت قدمي فاجرة عجوز مجربة ومتسلطة. وإذا خرج من هذه المحنة سليمًا ساعتها، فاعتبريه مع ذلك في عداد الهالكين، فتلك وصمة تبقى طول العمر.

وبحلول عيد الميلاد كانت قد ملته، فعادت إلى أحد معشوقيها القدامى المجربين. أما هو، الشاب، فلم يُطِق هجرها. كان يتبعها كالشبح. وهزل واصفر وارهقه العذاب. وبتعبير البلغاء «ألقى الموت بظله على جبينه العريض». كان يغار عليها بشكل فظيع. وقالوا أنه كان يقف ليالي بأكملها تحت نوافذها.

وذات مرة، في الربيع، أقاموا في الفوج نزهة خلوية. وكنت أعرفه وأعرفها شخصيًّا، ولكني لم أشهد تلك الواقعة. وكما هي العادة في تلك الأحوال شربوا كثيرًا. وفي الليل عادوا سيرًا على الاقدام فوق الخط الحديدي. وفجأة رأوا قطار بضائع قادمًا من الجهة المقابلة. كان يسير ببطء شديد وهو يصعد مطلعًا حادًّا ويطلق الصفير. وعندما حاذتهم أنوار القاطرة همست فجأة في أذن

الضابط: «إنك تردد دائمًا أنك تحبني. ولكني لو أمرتك أن تلقي بنفسك تحت القطار فلن تفعل على ما أظن»، وإذا به ينطلق، دون أن يتفوه بكلمة، ويلقى بنفسه تحت القطار. ويُقال أنه قدّر أن يلقي بنفسه بين العجلات الأمامية والخلفية، لكي يشطره القطار نصفين. ولكن أحد الحمقى قرر أن يمسك به ويدفعه بعيدًا. فلم يستطع. كان الضابط قد تشبث بالقضيب فبتر القطار ساعديه.

فصاحت فيرا:

- أوه، يا للفظاعة!

- واضطر الضابط إلى ترك الخدمة. وجمع له رفاقه بعض النقود لنفقات السفر. كان من المحرج له أن يبقى في المدينة، إذ كان تأنيبًا حيًّا لها وللفوج كله. وهكذا ضاع هذا الانسان.. على أخس صورة.. أصبح متسولًا.. ومات من البرد في إحدى زوايا المرفأ في بطرسبرج.

أما الحالة الثانية فكانت بائسة تمامًا. والمرأة كانت أيضًا مثل الأولى تمامًا، ولكنها شابة وجميلة. كان سلوكها مشينًا، مشينًا جدًّا. ورغم نظرتنا اللامبالية إلى قصص الغرام المنزلية هذه فقد أزعجتنا. أما زوجها فلم يكترث. كان يعرف ويرى كل شيء ولا يهتم. كان أصدقاؤه يلمحون له، لكنه يشيح بيديه: «دعوني، دعوني. لا دخل لي، لا دخل لي.. المهم أن تكون لينا سعيدة!...». هذا التيس!

وأخيرًا توطدت علاقتها بالملازم فيشنياكوف من سريتهم. وهكذا عاش ثلاثتهم في رابطة زواج بزوجين. وكأنما ذلك أكثر أنواع الزواج شرعية. ثم صدرت الأوامر لفوجنا بالتحرك إلى الجبهة. وودعتنا نساؤنا، وكانت هي معهن. وفي الحقيقة كان النظر إليها مخجلًا. لو أنها ألقت نظرة واحدة إلى زوجها. كلا، تعلقت برقبة الملازم كما يتعلق الشيطان على غصن صفصافة جاف ولم تتركه. وساعة الرحيل، عندما جلسنا في عربات القطار وتحرك بنا. صاحت الفاجرة، بزوجها: «تذكر، حافظ على فولوديا! لو حدث له شيء فسأترك المنزل ولن أعود أبدًا. والأولاد سآخذهم!».

أتظنين أن ذلك النقيب كان بِلا إرادة؟ كان ضعيف الشخصية؟ بِلا عزيمة؟ أبدًا. لقد كان جنديًّا شجاعًا. قاد سريته عند الجبال الخضراء ست مرات نحو الاستحكامات التركية، ولم يبقَّ من رجاله المائتين سوى أربعة عشر. وجرح مرتين، ولكنه رفض الذهاب إلى المركز الطبي. هكذا كان. والجنود كانوا يصلون للّه من أجله.

أما هي فقد أمرته... زوجته لينا أمرته! فأخذ يرعى ذلك الجبان التنبل فيشنياكوف، ذلك اليعسوب الأجدب.. يرعاه كالمربية، كالأم. وعندما يضطرون إلى النوم تحت المطر وفي الوحل كان يغطيه بمعطفه. وكان يذهب بدلًا منه لأعمال الهندسة، أما ذاك فكان يرقد في الملجأ أو يلعب الورق. وفي الليل كان يفتش بدلًا منه على مراكز الحراسة. ولاحظي يا عزيزتي فيرا أن هذا حدث في الوقت الذي كان البشبيزوق الأتراك يقطعون فيه رؤوس حراسنا بنفس البساطة التي كانت تجتث بها فلاحة من «ياروسلافل» رؤوس الكرنب في حديقة منزلها. واقسم لكِ - وإن كان من الحرام أن أذكر ذلك - أن الجميع فرحوا عندما علموا أن فيشنياكوف مات في المستشفى من التيفوس...

- ولكن ألم تقابل يا جدي نساء محبات؟

- أوه، طبعًا يا فيرا. بل أقول لكِ أكثر من ذلك: إن كل امرأة تقريبًا قادرة في حبها على ضرب أسمى آيات البطولة. اعلمي يا فيرا أن المرأة وهي تقبِّل وتعانق وتسلم نفسها.. إنما هي قد أصبحت أمًا بالفعل. والحب بالنسبة لها، إذا كانت تحب، يلخص كل معنى الحياة، والكون كله! وليس الذنب ذنبها أبدًا في أن الحب اتخذ عند الناس تلك الصور المبتذلة وانحط إلى مجرد راحة من راحات الحياة، إلى متعة صغيرة. الرجال هم المذنبون، الرجال الشبعى في سن العشرين، بأجساد الفراخ وأرواح الأرانب، غير القادرين على الرغبات القوية والأعمال البطولية وعلى الرقة والتعبد أمام الحب. يُقال أن كل ذلك كان موجودًا في الماضي. وحتى لو لم يكن موجودًا، ألم تحلم بذلك وتحن إليه أفضل عقول البشرية ونفوسها: الشعراء والكتاب والموسيقيون والفنانون؟ لقد قرأت منذ أيام قصة مانون ليسكو والفارس دي جريبي.. أتصدقين أنني بكيت حتى سالت دموعي... قولي لي يا عزيزتي، بكل صدق، ألا تحلم كل امرأة في أعماق نفسها بمثل هذا الحب الوحيد، الذي يغفر كل شيء، المستعد لكل شيء، الحب المتواضع والمتفاني؟

- أوه، طبعًا يا جدي، طبعًا...

- ولما كان هذا الحب غير موجود فالنساء ينتقمن بعد ثلاثين عامًا.. لن أرى ذلك، أما أنتِ يا فيرا فربما رأيته. تذكري ما أقول. بعد ثلاثين عامًا ستتبوأ النساء في العالم مكانة لم يسبق لها مثيل. وسوف يتزينّ كما تتزين الأصنام الهندية. وسوف يدسننا، نحن الرجال، كالعبيد المهانين المحتقرين. وستصبح رغباتهنّ الطائشة ونزواتهنّ قوانين معذبة لنا. وكل ذلك لأننا لم نستطع طوال أجيال أن نعبد الحب ونبتهل له. سيكون ذلك انتقامًا. أتعرفين القانون القائل: لكل فعل رد فعل مساوٍّ له في المقدار...

وصمت قليلًا ثم سأل فجأة:

- خبريني يا فيرا، إذا لم يكن ذلك محرجًا لكِ، ما هي قصة عامل التليغراف هذا الذي تحدث عنه الأمير فاسيلي اليوم؟ أين الحقيقة فيها وأين الاختلاق، كما تعود أن يفعل؟

- وهل هذا يهمك يا جدي؟

- كما تشائين يا فيرا، كما تشائين..

- إذا كان هذا يضايقك لسبب ما...

- أبدًا يا جدي. سأرويها لك بكل سرور.

وحكت للقومندان بالتفصيل عن شخص مجنون بدأ يطاردها بحبه قبل زواجها بعامين. لم تره أبدًا ولا تعرف اسمه. كان يكتب لها فقط ويوقع رسائله بأحرف: ج. س. ج. وذات مرة ذكر أنه موظف صغير في إحدى الدوائر الحكومية، ولم يذكر عن التليغراف شيئًا. ويبدو أنه كان يراقبها على الدوام، لأنه كان يذكر في رسائله بكل دقة أماكن الحفلات التي كانت ترتادها والجو المحيط بها وما الذي كانت ترتديه. وكانت رسائله في البداية قليلة الذوق وتحمل طابع الحماس المضحك، رغم أنها كانت وقورة تمامًا. ولكن فيرا طلبت منه ذات مرة كتابةً (وبالمناسبة لا تذكر عن ذلك شيئًا يا جدي لأحد من منزلنا فهم لا يعرفون شيئًا) ألا يضايقها بعد ذلك باعترافاته الغرامية. ومن وقتها كف عن حديث الحب ولم يعد يكتب إليها إلا نادرًا.. في عيد الفصح ورأس السنة وعيد ميلادها. وحكت الأميرة فيرا أيضًا عن هدية اليوم، بل ونقلت له بالحرف تقريبًا محتويات الرسالة الغريبة لعاشقها الغامض...

وأخيرًا قال الجنرال ببطء:

- نعم... ربما كان شابًّا غير طبيعي... مهووس، ولكن من يدري؟ ربما يكون ذلك الحب الذي تحلم به النساء والذي لم يعد الرجال قادرين عليه بعد هو الذي عبر درب حياتك يا فيرا. مهلًا أترين الأضواء المتحركة هناك أمامنا؟ لا بد أنها مركبتي.

وفي نفس اللحظة ترددت خلفهما زمجرة عالية لمحرك سيارة. ولمع الطريق المليء بحفر العجلات بضوء غاز الاسيتلين الأبيض. واقترب جوستاف إيفانوفتش وقال:

- لقد أخذت معي أشياءك يا آنا.. اجلسي. أتسمحوا لي يا صاحب السعادة أن أوصلكم؟

فقال الجنرال:

- كلا، شكرًا يا عزيزي. إنني لا أحب هذه السيارات، فليس فيها ما يسر، فقط ترتعش وتطلق رائحة كريهة. حسنًا، وداعًا يا فيرا... - وقال وهو يلثم جبين فيرا ويدها: سوف أكثر من زياراتي منذ الآن.

وودعوا بعضهم بعضًا. وأوصل فريسي الأميرة فيرا نيقولايفنا إلى بوابة المنزل، ثم دار بسرعة واختفى في الظلام بسيارته المزمجرة المتحشرجة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

–9–

صعدت الأميرة فيرا إلى الشرفة ودخلت المنزل باحساس مزعج. وكانت قد سمعت من بعيد صوت أخيها نيقولاي العالي ورأت قامته الطويلة الجافة وهي تتنقل بسرعة من ركن إلى ركن. وكان فاسيلي لفوفتش جالسًا إلى طاولة اللعب وقد أحنى بشدة رأسه الكبير الأشقر المقصوص الشعر وهو يخطط بالطباشير على الجوخ الأخضر.

وقال نيقولاي بعصبية وحرك يده اليمنى وكأنه يلقى على الأرض بثقل غير مرئي:

- من زمان وأنا أُصر على ذلك! من زمان وأنا أُصر على إيقاف هذه الرسائل الحمقاء. كنت أؤكد حتى قبل زواجك بفيرا. أنكما تتسليان بها كالأطفال ولا تريان فيها إلا ما يضحك... هذه هي فيرا بالمناسبة... إنني أتحدث يا فيرا مع فاسيلي لفوفتش عن مجنونك هذا. عن صاحبك ب. ب. ج. إنني أعتبر هذه المراسلة وقحة وسافلة.

فرده شيين ببرود:

- لم تكن هناك أية مراسلات. هو وحده الذي كان يكتب...

واحمرت فيرا لدى سماعها هذه العبارة وجلست على الأريكة في ظل شجرة لطانيا كبيرة.

وقال نيقولاي نيقولايفتش:

- آسف على هذا التعبير...

وألقى على الأرض بثقل كبير غير مرئي وكأنه انتزعه من فوق صدره.

وأضافت فيرا وقد أسعدها تأييد زوجها:

- وانا لا أفهم لماذا تسميه صاحبي.. إن لي فيه مثل مالك...

- حسنًا، آسف مرة أُخرى. باختصار أُريد أن أقول أنه لا بد من وضع حد لسخافاته. ففي رأيي أن المسألة تجاوزت حدود الضحك ورسم الرسوم المسلية... صدقوني، إن كل ما يهمني هنا وما يشغلني هو سمعتك يا فيرا وأنت يا فاسيلي لفوفتش...

فقال شيين معترضًا:

- لا، يبدو أنك تغالي كثيرًا يا نيقولاي...

- ربما، ربما.. ولكنكما تخاطران بالوقوع في مهزلة...

فقال الأمير:

- لا أرى ما يبرر ذلك.

- تصور أن هذا السوار الأحمق... (ورفع نيقولاى العلبة الحمراء من على الطاولة وألقى بها على الفور متقززًا) تصور أن هذا الشيء الكنسي الفظيع بقي لدينا، أو أننا ألقينا به، أو أهديناه إلى داشا. عندئذٍ سيكون في وسع ب. ب. ج. أن يتباهى أمام معارفه أو رفاقه بأن الأميرة فيرا نيقولايفنا شيينا تتقبل منه الهدايا. هذا أولًا. وثانيا، فإن النجاح الأول سيشجعه على مواصلة مآثره. سيبعث غدًا بخاتم من الماس، وبعد غد بعقد من الجوهر، ثم إذا به في قفص الاتهام بتهمة التبديد أو الاختلاس وإذا بالأميرة والأمير شيين مدعوان كشهود.. ياله من موقف ظريف!...

فصاح فاسيلي لفوفتش:

- كلا، كلا، لا بد من رد السوار!

وقالت فيرا موافقة:

- هذا رأيي أيضًا.. وبأسرع ما يمكن. ولكن كيف نرده؟ إننا لا نعرف لا اسمه ولا اسم عائلته ولا عنوانه.

فقال نيقولاي نيقولايفتش باستهانة:

- أوه، هذا شيء تافه. إننا نعرف الحروف الأولى من اسم هذا الـ ب. ب. ج.. ما هي يا فيرا؟

- ج. س. ج.

- عظيم. وفوق ذلك نعرف أنه يخدم في دائرة ما. هذا كافٍ تمامًا. غدًا سآخذ دليل المدينة وأبحث عن موظف أو مستخدم يتطابق اسمه مع هذه الأحرف. وإذا لم أجده لسبب من الأسباب فسأستدعي ببساطة مخبر بوليس وآمره بالبحث عنه. واذا كان ذلك صعبًا فسأحتفظ بهذه الورقة بخطه. وباختصار، غدًا في الساعة الثانية بعد الظهر سأكون قد عرفت بالدقة عنوان واسم هذا الشاطر، بل وحتى مواعيد وجوده في المنزل. فإذا عرفت ذلك فلن نرد إليه غدًا كنزه فحسب، بل وسنتخذ الإجراءات الكفيلة بألا يذكرنا بوجوده بعد ذلك أبدًا.

فسأل الأمير فاسيلي:

- ماذا تنوي أن تفعل؟

- ماذا؟ سأذهب إلى المحافظ وأطلب منه أن...

- كلا، إلا المحافظ. أنت تعرف علاقاتنا.. هنا خطر مباشر أن نقع في مهزلة.

- سيان. سأذهب إلى عقيد الشرطة. إنه زميلي في النادي. فليستدع هذا الروميـو وليهدده بوضع إصبعه تحت انفه. أتعرف كيف يفعل ذلك؟ يضع إصبعه تحت أنف الشخص تمامًا وتبقى يده ثابتة ولا يتحرك إلا إصبعه، ويصيح: «إنني يا حضرة لن أسمح بذلك!»

فقالت فيرا ممتعضة:

- أف، عن طريق الشرطة!

فأمن الأمير:

- معك حق يا فيرا. يستحسن ألا يدخل أحد غريب في هذه المسألة، إذ ستظهر الشائعات والأقاويل... نحن نعرف مدينتنا جيدًا. كأن الجميع يعيشون في قوارير زجاجية.. من الأفضل أن أذهب أنا إلى هذا الـ... الشاب، رغم أنه، من يدري، ربما كان في الستين... وأسلمه السوار ، وأُلقي عليه درسًا جيدًا صارمًا. فقاطعه نيقولاي نيقولايفتش بسرعة:

- إذن سأذهب معك. انت لين.. دعني أنا أتحدث معه... والآن يا أصدقائي - وأخرج ساعة الجيب ونظر إليها - اعذروني إذا انصرفت للحظة. لا أكاد أقوى على الوقوف وما زال أمامي قضيتان يجب أن أُراجعهما.

وقالت فيرا بتردد:

- لست أدري لماذا بدأت أرثي لهذا المسكين.

فرد نيقولاي بحدة مستديرًا عند الباب:

- ليس هناك ما يوجب الرثاء. لو أن الذي أقدم على إرسال السوار والرسالة شخص من مستوانا لاستدعاه الأمير فاسيلي للمبارزة. ولو لم يفعل ذلك لفعلته انا. ولو كان ذلك في الماضي لأمرتُ بسحبه إلى الاسطبل وجلده هناك. انتظرني غدًا يا فاسيلي لفوفتش في مكتبك وسأخابرك بالتليفون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

–10–

تناهت من الدرج الملوث بالبصاق روائح الفئران والقطط والكيروسين والغسيل. وتوقف الأمير فاسيلي قبل الطابق السادس وقال لصهره:

- انتظر قليلًا. دعني أسترد أنفاسي. آه يا كولا، ما كان ينبغي أن نفعل ذلك... وصعدا دورتين على الدرج. كان الظلام حالكًا في بسطة الدرج حتى أن نيقولاي نيقولايفتش اضطر إلى إشعال الكبريت مرتين ليتبين رقم الشقة.

ودق الجرس ففتحت الباب امرأة بدينة شائبة الشعر رمادية العينين، ترتدي نظارة، وقامتها محنية قليلًا إلى الأمام، ربما بسبب مرض ما.

وسأل نيقولاي نيقولايفتش:

- السيد جلتكوف موجود؟

ونقلت المرأة نظرتها القلقة من عيني أحدهما إلى عيني الآخر ثم بالعكس. ويبدو أن هيئتهما المحترمة طمأنتها فقالت وهي تفتح الباب:

- موجود، تفضلا. الباب الأول على اليسار.

ودق بولاط - توجانوفسكي ثلاث دقات قصيرة حازمة. وتناهى من الداخل حفيف ما. ودق مرة أخرى.

فأجاب صوتٌ واهٍ:

- ادخل.

كانت الغرفة منخفضة السقف جدًّا، ولكنها واسعة وطويلة للغاية، مربعة تقريبًا. وكان الضوء المتسلل من نافذتين مستديرتين كنوافذ السفن يضيؤها بالكاد. وعمومًا فقد كانت تشبه صالون الإستراحة في سفينة شحن. وبجوار أحد الحائطين انتصب سرير ضيق، وبجوار الحائط الآخر أريكة ضخمة عريضة مغطاة ببساط تركماني رائع مهترئ، وفي وسط الغرفة طاولة بمفرش أوكراني مورّد.

لم يكن وجه صاحب الغرفة ظاهرًا في البداية، إذ كان موليًا ظهره للضوء وهو يفرك يديه مضطربًا. كان طويل القامة، نحيلًا، بشعر طويل زغبي ناعم.

وسأل نيقولاي نيقولايفتش بتعالٍ:

- اذا لم أكن مخطئًا فأنت السيد جلتـ ـــ كوف؟

- جلتكوف. أهلًا وسهلًا. اسمحوا لي بتقديم نفسي.

وخطا خطوتين نحو توجانوفسكي مادًّا يده. ولكن نيقولاي نيقولايفتش في نفس اللحظة، وكأنما لم يلاحظ تحيته، استدار بكل جسده نحو شيين.

- ألم أقل لك أننا لم نخطىء.

وصعدت أصابع لتكوف المعروقة العصبية وهبطت على أزرار السترة البنية القصيرة وهي تزررها وتفكها. وأخيرًا قال بعد جهد مشيرًا إلى الأريكة وهو ينحني متعثرًا:

- أرجو أن تتفضلوا بالجلوس.

أصبح مرئيًّا كله الآن: وجه شاحب جدًّا ورقيق مثل وجه الفتيات، وعينان زرقاوان وذقن طفولي عنيد بغمازة في وسطه. ويبدو أنه كان في حوالي الثلاثين أو الخامسة والثلاثين.

فقال الأمير شيين ببساطة وهو يتفحصه بإمعان:

- أشكرك.

قال نيقولاي نيقولايفتش - Merci - وبقيّ كلاهما واقفين. لقد جئناك لبضع دقائق فقط. هذا هو الأمير فاسيلي لفوفتش شيين زعيم النبلاء المحليين. أما أنا فميرزا - بولاط - توجانوفسكي، وكيل النائب العام. والمسألة التي نتشرف بالحديث فيها معك تمس الأمير وتمسني بنفس الدرجة، أو بالأحرى زوجة الأمير أي أختي.

وفجأة انهار جلتكوف المرتبك تمامًا على الأريكة ودمدم بشفتين ميتتين: «تفضلوا يا سادة بالجلوس». ولكنه فيما يبدو تذكر أنه عرض عليهما نفس الشيء من قبل دون طائل، فهبَّ واقفًا وركض إلى النافذة وهو يفرك شعره وعاد إلى مكانه السابق. وأخذت أصابعه المرتعشة من جديد تتراقص وهي تهصر الأزرار وتشد شاربه المائل إلى الحمرة وتتحسس وجهه دون داعٍ.

وقال بصوت أجش وهو يتطلع إلى فاسيلي لفوفتش بعينين ضارعتين:

- أنا في خدمتكم يا صاحب السمو.

ولكن شيين لزم الصمت. وكان المتحدث نيقولاي نيقولايفتش:

- أولًا، اسمح لي برد هديتك (وأخرج من جيبه العلبة الحمراء ووضعها على الطاولة بعناية) إنها بالطبع لِمِّمَا يشرف ذوقك، ولكننا نرجوك ألا تتكرر بعد مثل هذه المفاجآت.

فهمس جلتكوف وهو ينظر إلى الأرض محمرًا:

- عفوا... أنا أعرف أنني مذنب جدًّا.. أتسمحون بكوب من الشاي؟

ولكن نيقولاي نيقولايفتش مضى يقول وكأنه لم يسمع عبارة جلتكوف الأخيرة:

- الحقيقة يا سيد جلتكوف.. أنني مسرور إذ وجدتك شخصًا مهذبًا، جنتلمان، قادرًا على الفهم بمجرد الإشارة. وأعتقد أننا سنتفق على الفور. إذا لم أكن مخطئًا فأنت تطارد الأميرة فيرا نيقولايفنا منذ حوالي 7-8 سنوات؟

فقال جلتكوف بصوت خافت:

- نعم.

وأرخى رموشه في خشوع.

- ولم نتخذ حتى الآن أية اجراءات ضدك مع أن ذلك - ولتوافقني - لم يكن ممكنًا فحسب، بل وضروريًّا أيضًا أليسَ كذلك؟

- بلى.

- نعم. ولكنك بتصرفك الأخير، أي بارسالك هذا السوار العقيق، قد تخطيت الحدود التي ينتهي عندها صبرنا، أتفهم؟ ينتهي. ولا أخفي عليك أن أول شيء راودنا هو اللجوء إلى السلطات، ولكننا لم نفعل ذلك، وإني لسعيد بأننا لم نفعل لأنني، وأكرر، قد خمنت أنك إنسان شريف.

وفجأة سأل جلتكوف باهتمام:

- عفوًا، ماذا قلت؟ (وانفجر ضاحكًا) أردت اللجوء إلى السلطات؟ هل هذا ما قلته بالضبط؟

ودس يديه في جيبيه، واستراح في جلسته عند طرف الأريكة، وتناول علبة السجائر والكبريت وأشعل سيجارة.

- وهكذا فقد قلت أنكم أردتم اللجوء إلى السلطات؟.. (وقال مخاطبًا الأمير) اعذرني يا أمير على جلوسي - حسنًا وماذا بعد؟

وقربَّ الأمير كرسيه من الطاولة وجلس. كان يحدق بذهول وفضول نهم وجاد في وجه هذا الانسان الغريب.

ومضى نيقولاي نيقولايفتش يقول بوقاحة خفيفة:

- في الواقع يا عزيزي فإن هذا الإجراء ممكن اتخاذه ضدك في أي وقت. فإن تحشر نفسك في أسرة غريبة عنك...

- آسف، ولكني سأقاطعك.

فقال النائب وهو يكاد يصرخ:

- كلا، آسف. بل أنا الذي سأقاطعك...

- كما تشاء. تفضل. إنني مُصغٍ، ولكن عندى بضع كلمات للأمير فاسيلي لفوفتش.

ودون أن يعير توجانوفسكى انتباهًا قال للأمير:

- لقد حلت الآن أصعب لحظة في حياتي. وينبغي يا أمير أن أتحدث إليك بدون أية قيود أو مجاملات.. هل ستسمعني؟

فقال شيين:

- إنني مصغٍ (ولاحظ حركة احتجاج غاضب من توجانوفسكي فقال له) هلا صمت أنت يا كولا.. تفضل.

وظل جلتكوف لعدة ثوان يلقف الهواء بشفتيه وكأنه يختنق، ثم انطلق مندفعًا كأنما هوى من جرف. كان يتحدث بفكيه فقط، فقد كانت شفتاه بيضاوين لا تتحركان كشفتي ميت.

- من الصعب أن أتفوه بعبارة.. كهذه... إنني أُحب زوجتك. ولكن سبع سنوات من الحب اليائس الموقر تعطيني الحق في ذلك. إنني موافق على أنني في البداية، وفيرا نيقولايفنا بعد آنسة، كتبت لها رسائل حمقاء، بل وتوقعت منها ردًّا. وإني موافق على أن تصرفي الأخير، أي إرسال السوار، كان حماقة أكبر. ولكن... ها أنا ذا أنظر فى عينيك صراحة وأحس أنك ستفهمني. أنا أعرف أنني لست قادرًا على نسيانها أبدًا... خبرني يا أمير.. لنفرض أن ذلك يضايقك.. خبرني، ما الذي كنت ستفعله لقتل هذا الإحساس؟ أكنت تنقلني إلى مدينة أخرى كما قال نيقولاي نيقولايفتش؟ ولكني مع ذلك سأظل هناك أُحب فيرا نيقولايفنا كما أُحبها هنا. أكنت تضعني في السجن؟ وهناك أيضًا كنت سأجد وسيلة لاخبارها بوجودي. لا يبقى غير شيء واحد: الموت... إذا أردت فإني مستعد لتَلقِيه في أي صورة...

وقال نيقولاي نيقولايفش وهو يرتدي القبعة:

- بدلًا من أن نعمل عملًا فإننا نُمارس ثرثرة ما. المسألة باختصار شديد، أننا نعرض عليك واحدة من اثنتين: إما أن تكفَ تمامًا عن ملاحقة الأميرة فيرا نيقولايفنا. وإما إن رفضت ذلك، فإننا سنتخذ الإجراءات التي يسمح لنا بها وضعنا وعلاقاتنا وما إلى ذلك.

ولكن جلتكوف حتى لم ينظر إليه، رغم أنه سمع ما قاله. فقال مُخاطبًا الأمير فاسيلي لفوفتش:

- هل تأذن لي بالتغيب عشر دقائق؟ لن أُخفي عليك أنني سأذهب لمخابرة الأميرة فيرا نيقولايفنا بالتليفون. وأؤكد لك أنني سأنقل لك كل ما يمكن نقله من الحديث.

فقال شيين:

- إذهب.

وعندما بقي فاسيلي لفوفتش وتوجانوفسكي على حدة انقضَّ نيقولاي نيقولايفتش على صهره صارخًا، وهو يشيح بيده اليمنى كأنما يلقي بشيء ثقيل غير مرئي من فوق صدره على الأرض.

- لا يمكن هكذا.. لا يمكن هكذا أبدًا. لقد سبق أن نبهتك إلى أن الجزء العملي كله من الحديث سأتكفل انا به. ولكنك ضعفت وسمحت له بالاسهاب في التعبير عن مشاعره. كنت سأنهي الأمر في كلمتين.

فقال الأمير فاسيلي لفوفتش:

- مهلًا. سيتضح الآن كل شيء، المهم أنني أرى وجهه، وأحس أن هذا الانسان غير قادر على الكذب والخداع المتعمد. وبالفعل يا كولا، هل هو مذنب في الحب، وهل يمكن التحكم في عاطفة كالحب، عاطفة لم تجد حتى الآن من يفسرها (وفكر الأمير قليلًا ثم أضاف) إنني أرثي لهذا الشخص. ولست أرثي له فقط. بل أحس أنني أشهد مأساة روحية ضخمة، ولا أستطيع هنا أن أهرج.

فقال نيقولاي نيقولايفتش:

- هذه ميوعة.

وعاد جلتكوف بعد عشر دقائق. كانت عيناه تلمعان وغائرتين كأنهما مملوءتان بدموع لم تنسكب. وبدا أنه نسى تمامًا قواعد السلوك في المجتمعات، وفي أي مكان من ينبغي أن يجلس، ولم يعد يتصرف كجنتلمان ومن جديد أدرك الأمير شيين ذلك بفراسة كبيرة متوترة.

وقال جلتكوف:

- إنني مستعد. لن تسمعوا عني شيئًا غدًا. كأني قد مت بالنسبة لكم. عندي فقط شرط واحد - إنني أقول هذه لك يا أمير فاسيلي لفوفتش - الحقيقة أنني بددت أموالًا أميرية، وعلى أي حال سيكون عليَّ أن أهرب من هذه المدينة. هل تسمح لي بأن أكتب رسالة أخيرة إلى الأميرة فيرا نيقولايفنا؟

فصرخ نيقولاي نيقولايفتش:

- لا. انتهينا يعني انتهينا. لا رسائل.

وقال شيين:

- حسنا، أُكتب.

وهمس جلتكوف وهو يبتسم بتكبر: - هذا كل ما هنالك. لن تسمعوا عني شيئًا بعد الآن، وبالطبع لن تروني بعد. الأميرة فيرا نيقولايفنا لم ترد أن تتحدث معي مطلقًا. وعندما سألتها هل يمكنني البقاء في المدينة لكي أراها ولو نادرًا، بالطبع دون أن يقع بصرها عليَّ، أجابت: «آهٍ لو تعلم كم مللت هذه الحكاية كلها. أرجوك، إنتهِ منها بأسرع ما يمكن». وها أنا ذا أنهي هذه الحكاية كلها. يبدو أنني فعلت كل ما في وسعي؟

وعندما وصل فاسيلي لفوفتش إلى الدار في المساء روى لزوجته كل تفاصيل لقائه بجلتكوف بدقة بالغة. وكأنما أحسَّ بأن عليه أن يفعل ذلك.

ورغم ان فيرا كانت منفعلة إلا أنها لم تدهش أو تضطرب. وعندما جاء زوجها إلى فراشها ليلًا، قالت له فجأة وهي توليه ظهرها:

- دعني.. إنني أعرف أن هذا الشخص سيقتل نفسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

–11–

لم تكن الأميرة فيرا نيقولايفنا تقرأ الصحف أبدًا، أولًا لأنها كانت تلوث يديها، وثانيًا لأنها لم تستطع أبدًا أن تفهم اللغة التي يكتبون بها الآن.

ولكن القدر جعلها تفتح تلك الصفحة بالذات وتقع عينها على العمود الذي كان مكتوبًا فيه:

«وفاة غامضة. في حوالي الساعة السابعة من مساء الأمس انتحر المدعو ج. س. جلتكوف الموظف بغرفة الرقابة. وتدل نتيجة التحقيق على أن سبب إنتحار المرحوم هو تبديد أموال أميرية. وهذا على الأقل ما أشار إليه المنتحر في خطابه. ونظرًا لأن شهادة الشهود قد أثبتت اقدامه الاختياري على هذا العمل فقد تقرر عدم إرسال الجثة إلى المشرحة».

وقالت فيرا لنفسها:

«لماذا حدست ذلك؟ هذه النهاية التراجيدية بالذات؟ وتُرى أكان ذلك حبًّا أَم جنونًا؟»

وظلت طوال النهار تتجول بين أحواض الزهور وفي البستان. وكأنما لم يمكنها القلق الذي كان يتزايد داخلها كل لحظة من البقاء في مكان واحد. وكانت كل أفكارها معلقة بذلك الرجل الذى لم تره أبدًا والذي من المستبعد أن تراه بعد الآن.. بذلك الـ ب. ب. ج. المضحك.

وتذكرت كلمات أنوسوف: «ربما عبر درب حياتك حب حقيقي متفانٍ صادق».

وفي الساعة السادسة جاء ساعي البريد. وفي هذه المرة عرفت فيرا نيقولايفنا خط جلتكوف، فقضت الرسالة بحنان لم تتوقعه من نفسها.

كتب جلتكوف يقول:

«لست مذنبًا يا فيرا نيقولايفنا في أن إرادة اللّه شاءت أن تبعث إليَّ بحبي لك كسعادة ضخمة. وقد اتفق أنني لم أهتم بشيء في الحياة، لا بالسياسة ولا بالعلم ولا بالفلسفة ولا بالتفكير في سعادة الأجيال القادمة.. كانت الحياة كلها بالنسبة لي تنحصر فيك وحدك. والآن أحس أنني حُشرت في حياتك اسفينًا مزعجًا. اغفري لي ذلك أن استطعت. فاليوم سأرحل ولن أعود أبدًا، ولن يذكركِ بي شيء.

إنني مدين لكِ بعرفان لا حدود له على مجرد وجودك. وقد تحققت من مشاعري.. ليس هذا مرضًا أو فكرة جنونية.. إنه الحب الذي شاء اللّه أن يكافئني به على شيء لا أدريه.

لا بأس ان كنت مضحكًا في نظرك وفي نظر أخيكِ نيقولاي نيقولايفتش. إنني أقول بإعجاب وأنا أمضي: «فليتقدس اسمك».

لقد رأيتكِ منذ ثماني سنوات في مقصورة بالسيرك، فقلت لنفسي أنذاك ومنذ أول ثانية: إنني أحبها لأنه ليس في الدنيا مثلها ولا أجمل منها. ليس هناك وحش أو نبات أو نجمة أو إنسان أروع منكِ وأرقُّ. كأنما كل جمال الأرض قد تركز فيكِ...

فما الذي كان عليَّ أن أفعله؟ أأهرب إلى مدينة أُخرى؟ سيان، فقد كان قلبي دائمًا إلى جوارِكِ، وتحت قدميكِ، وكل لحظة من أيامي كانت مليئة بكِ وبالتفكير فيكِ والحلم بكِ... بالهذيان العذب. إنني أتضرج خجلًا بيني وبين نفسي على سواري الأحمق، فما العمل؟ كانت غلطة، إنني أتخيل ما أثاره في نفوس ضيوفكِ من انطباع.

بعد عشر دقائق سأرحل، سأتمكن فقط من لصق الطابع ووضع الرسالة في صندوق البريد حتى لا أكلف بذلك أي شخص آخر. أما أنتِ فلتحرقي هذه الرسالة. فها أنا ذا قد اشعلت المدفأة واحرق فيها الآن كل ما كان عزيزًا عليَّ في حياتي: منديلكِ، الذي أعترف لكِ بأنني سرقته. لقد نسيته على الكرسي في حفلة راقصة في نادي النبلاء. ورسالتك القصيرة - أوه ، كم قبلتها - والتي منعتني بها من الكتابة إليكِ. وبرنامج المعرض الفني الذي امسكتِ به ذات مرة ثم نسيته على المقعد عند خروجكِ... انتهى كل شيء. لقد مزقت الخيوط، ومع ذلك أعتقد، بل إنني موقنٌ من أنكِ ستتذكرينني. فإذا تذكرتني فأرجو... أنني أعرف أنكِ من عشاق الموسيقى، فقد كنت أراكِ أكثر شيء في حفلات بتهوفن.. إذا تذكرتني فلتعزفي أو أطلبي أن يعزفوا سوناتا D-dur N 2", op. 2.

إنني لا أعرف كيف أختم هذه الرسالة. من أعماق قلبي اشكركِ على أنكِ كنتِ بهجتي الوحيدة في الدنيا، وعزائي الوحيد وأفكاري الوحيدة. فليهبكِ اللّه السعادة، ولا يعكرن صفو روحكِ الرائعة أي شيء زائل من توافه الحياة. أُقبل يديكِ.

ج. س. ج.».

جاءت إلى زوجها بعينين محمرتين من البكاء وبشفتين متورمتين، وأرته الرسالة قائلة:

- لا أريد أن أُخفي عنك شيئًا، ولكني أحس أن شيئًا فظيعًا قد دخل حياتنا. يبدو أنك و نيقولاي نيقولايفتش قد تصرفتما ليس كما ينبغي.

وقرأ الامير شيين الرسالة باهتمام، ثم طواها بعناية، وصمت طويلًا ثم قال:

- إنني لا أشك فى إخلاص هذا الرجل، بل ان٦ني حتى لا أجرؤ على مناقشة مشاعره نحوكِ.

وسألت فيرا:

- هل مات؟

- نعم مات. أستطيع أن أقول أنه كان يحبكِ، ولم يكن قَطُّ مجنونًا. إنني لم أُحوِل عنه عيني، وتابعت كل حركة من حركاته وكل تحول كان يطرأ على وجهه. وبالنسبة له لم يكن للحياة وجود بدونكِ. وخيِّل إليَّ أنني أشهد عذابًا هائلًا، ذلك العذاب الذي يفضي بالناس إلى الموت. بل إنني أدركتُ تقريبًا أن أمامي إنسانًا ميتًا. أتعلمين يا فيرا، لم أكن أدري كيف أتصرف ولا ماذا أفعل...

وقاطعته فيرا نيقولايفنا:

اسمع يا فاسيا، هل يؤلمك إذا ذهبتُ إلى المدينة والقيت عليه نظرة؟

- كلا، كلا با فيرا، تفضلي، أرجوكِ. كان بودي لو ذهبت أيضًا، ولكن نيقولاي أفسد عليَّ كل شيء. أخشى أن أحس بالتكلف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

–12–

غادرت فيرا نيقولايفنا مركبتها قبل بلوغ لوترانسكايا بشارعين. وعثرت على شقة جلتكوف دون مجهود كبير. فتحت لها الباب امرأة رمادية العينين، بدينة جدًّا، ترتدي نظارة فضية، وسألت كما بالأمس:

- من تريدين؟

فقالت الأميرة:

- السيد جلتكوف.

ويبدو أن زيها - القبعة والقفاز - ونبرة صوتها الآمرة قليلًا قد تركت في نفس ربة المنزل أثرًا كبيرًا، فخرجت عن تحفظها:

- تفضلي، تفضلي، الباب الأول على اليسار ثم.. حالًا.. آه، لقد رحل عنا بسرعة. لنفرض أنه بدد الأموال. حسنًا، أما كان يخبرني. إنك تعرفين أية ثروة لدينا عندما نؤجر الشقق للعزاب. ومع ذلك كان بوسعي أن أجمع له ستمائة أو سبعمائة روبل وادفعها عنه. آهٍ لو تعلمين يا سيدتي أي رجل رائع كان. ثماني سنوات وهو يسكن عندي. وكان لا يبدو لي نزيلًا، بل إبنًا.

وكان في المدخل كرسي فجلست فيرا عليه وقالت وهي تنتقي كل كلمة:

- إنني صديقة نزيلكِ المرحوم. احكي لي شيئًا عن آخر لحظات حياته، ما الذي فعله وقاله.

- لقد جاءنا يا سيدتي رجلان وتحدثا معه طويلًا. وبعدها قال لي أنهما عرضا عليه وظيفة وكيل أعمال. ثم ركض السيد «يجي» ليتلفن وعاد في غاية المرح. وانصرف السيدان، أما هو فجلس يكتب رسالة. ثم خرج ووضع الرسالة في صندوق البريد. وبعد ذلك سمعنا طلقة كأنها من مسدس أطفال، فلم نلتفت إلى ذلك. وكان يتناول الشاي في السابعة دائمًا. وجاءت لوكيريا - الخادمة - ودقت الباب فلم يرد، ودقت مرة أخرى وأخرى. واضطررنا إلى كسر الباب، فإذا به ميت.

وقالت فيرا نيقولايفنا آمرة:

- احكي لي شيئًا عن السوار.

- آه، السوار، لقد نسيت. ومن أين عرفتِ؟ لقد جاءني قبل أن يكتب الرسالة وسألني: «هل انتِ كاثوليكية؟» فأجبته: «كاثوليكية» . فقال لي: «لديكم عادة جميلة - هكذا قال: عادة جميلة - أن تعلقوا على صورة العذراء العقود

والأساور والخواتم والقلائد والهدايا. أرجو أن تحققي رغبتي.. هل تستطيعين تعليق هذا السوار على الأيقونة؟» فوعدته أن أفعل.

فسألتها فيرا:

- هلا أريتنيه؟

- تفضلي، تفضلي يا سيدتي. ها هو بابه، الأول على اليسار. لقد أرادوا اليوم أن ينقلوه إلى المشرحة، ولكن لديه شقيقًا رجاهم أن يُدفن حسب الأصول المسيحية. تفضلي، تفضلي.

واستجمعت فيرا قواها وفتحت الباب. كانت رائحة البخور تنبعث في الغرفة وتشتعل فيها ثلاث شمعات.

وكان جلتكوف ممددًا بزاوية. كان رأسه مدلى إلى الوراء بشدة، وكأنما عن عمد دسوا تحته، وهو الجثة التي لم تعد تأبه بشيء، هذه الوسادة اللينة الصغيرة جدًّا. وكان في عينيه المغمضتين أهمية عميقة، وافترت شفتاه عن ابتسامة رضى واطمئنان، كأنما أدرك قبل مفارقته للحياة سرًّا مكنونًا عذبًا فسر كل ألغاز حياته في هذه الدنيا. وتذكرت أنها رأت من قبل هذا التعبير المطمئن على أقنعة المعذبين العظيمين: بوشكين ونابليون.

وسألت المرأة العجوز ولاح في صوتها شيء حميم للغاية:

- هل تريدين يا سيدتي أن أخرج؟

فقالت فيرا:

- نعم وسأناديكِ فيما بعد.

واخرجت من جيب سترتها الجانبي الصغير على الفور وردة حمراء كبيرة، ورفعت بيدها اليسرى رأس الميت قليلًا ووضعت بيدها اليمنى الوردة تحت رقبته. وفي تلك الثانية أدركت أن ذلك الحب الكبير الذي تحلم به كل امرأة قد مرَ بجوارها. وتذكرت كلمات الجنرال أنوسوف عن الحب الخالد الفائق.. تلك الكلمات التي كانت كالنبوءة تقريبًا. وفرقت الشعر على جبهة الميت وضغطت بيديها على صدغيه بقوة وقبلته في جبينه البارد الرطب قبلة أخوية طويلة.

وعندما توجهت للخروج خاطبتها صاحبة المنزل بنبرة بولندية متزلفة:

- سيدتي إنني أرى أنكِ لستِ كالأُخريات، لم تأتي بدافع الفضول فقط. لقد قال لي المرحوم جلتكوف قبيل وفاته: «إذا حدث ومت وجاءت سيدة ما تلقي

عليَّ نظرة، قولي لها أن أفضل أعمال بتهوفن...»، لقد كتب لي ذلك.. انظري.

- أريني. (قالت فيرا نيقولايفنا وأجهشت فجأة) عفوًا، إن تأثير الموت صعب، حتى أنني لا أقوى على تمالك نفسي.

وقرأت هذه الكلمات المكتوبة بالخط المعروف..

.L. van Beethoven. Son. N 2, op. 2. Largo Appassionato

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

–13–

عادت فيرا نيقولايفنا إلى المنزل في ساعة متأخرة من المساء، وسرها أن لم تجد في المنزل زوجها أو أخاها.

ولكن كانت في انتظارها العازفة جيني ريتر، فارتمت عليها فيرا منفعلة بما رأته وسمعته، صاحت وهي تُقبِّل يديها الكبيرتين الرائعتين: - جيني يا عزيزتي، أرجوكِ، اعزفي لي شيئًا ما.

وخرجت على الفور من الغرفة إلى أحواض الزهور وجلست على الأريكة.

لم تشك لحظة واحدة في أن جيني ستعرف ذلك المقطع من السوناتا الثانية الذي طلبه هذا الميت ذو الاسم المضحك جلتكوف.

وهذا ما كان. عرفت من النغمات الأولى هذا العمل الفائق والفريد من حيث عمقه. وكأنما انقسمت روحها قسمين. وفكرت في آن واحد بأنه قد مرَ بجوارها حبٌّ كبير، لا يتكرر الغا مرة واحدة كل ألف عام. وتذكرت ما قاله الجنرال أنوسوف وسألت نفسها لماذا جعلها هذا الإنسان تستمع إلى معزوفة بتهوفن هذه بالذات وفوق ذلك رغمًا عنها؟ وتجمعت في ذهنها كلمات، انسجمت في أفكارها مع الموسيقى حتى بدت كمقاطع تنتهى بعبارة: «فليتقدس اسمك»

«الآن سأريك في الأنغام الرقيقة حياة حكمت على نفسها راضية قريرة بالعذاب والآلام والموت. لم أعرف الشكوى أو اللوم أو عذاب العزة المهيضة. أنا أمامك دعاء واحد: «فليتقدس اسمك»

نعم، إنني اتنبأ بالعذاب والدم والموت. وأعتقد أن فراق الروح سيكون صعبًا على الجسد، ولكن يا رائعتي، للكِ الثناء، الثناء الحار والحب المستكين. «فليتقدس اسمك».

أتذكر كل خطوة للكِ، ابتسامة ونظرة، كل صوت ندَّ عن مشيتكِ. وذكرياتي الأخيرة ملفعة بحزن عذب، هادئ رائع. لكني لن أحمل للكِ التعاسة. إنني أرحل وحيدًا، في صمت، فهكذا أراد اللّه والقدر. «فليتقدس اسمك».

وفي ساعة ما قبل الموت الحزينة أُصلي للكِ وحدك. كان من الممكن أن تصبح الحياة رائعة لي أيضًا. لا تتذمر يا قلبي المسكين لا تتذمر. نفسي تدعو الموت، ولكن قلبي عامر بالثناء عليكِ، «فليتقدس اسمك».

أنتِ، أنتِ ومن حولكِ، كلكم لا تعرفون كم كنتِ رائعة، الساعة تدق. أزفَ الموعد. وفي لحظة فراق الحياة الحزينة، أُغني وأنا راحل: المجد لك.

ها هو الموت قادم، الموت الناشر السكينة على كل شيء، أما أنا فأقول: المجد لك!...»

احتضنت الأميرة فيرا جذع الأكاسيا والتصقت به واجهشت بالبكاء. وارتعشت الشجرة برقة. وهبَّ نسيم خفيف فهفهفت الأوراق كأنما تعزي الأميرة. وازداد شذى زهور الطباق حدة... وفي تلك اللحظة مضت الموسيقى المدهشة تهمس كأنما تنساق لحزنها: «اهدئي يا عزيزتي، اهدئي. أنتِ تذكرينني؟ تذكرينني؟ أنتِ حبي الوحيد والأخير. اهدئي إنني معك. فكري فيَّ وسأكون معك، لأننا أحببنا بعضنا لحظة واحدة ولكن إلى الأبد. أتذكرينني؟ تذكرينني؟ تذكرينني؟ ها أنا أحس بدموعكِ. اهدئي. إنني أنام نومًا عذبًا، عذبًا، عذبًا».

خرجت جيني ريتر من الغرفة وقد انتهت من العزف فرأت الأميرة فيرا جالسة على الأريكة مبللة بالدموع.

فسألت العازفة:

- ماذا بكِ؟

فأخذت فيرا تقبِّل وجهها وشفتيها وعينيها باضطراب وانفعال وعيناها تلمعان بالدموع، وقالت: - لا شيء، لا شيء، لقد سامحني الآن. حسنٌ، حسنٌ.

عام 1911.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الكتاب..

–1–
–2–
–3–
-4-
–5–
–6–
–7–
–8–
–9–
–10–
–11–
–12–
–13–

Notes

[←1]

(1) مفكرة في الأصل بالفرنسية.

[2←]

(2) فاليريا مسالينا: زوجة الإمبراطور الروماني كلاوديوس (القرن الأول بعد الميلاد) اشتهرت بالقسوة والفجور. أُعدمت عام 48م. - المترجم